أشـرف العوضي





# الهيش






# الهيش

رواية




- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

**على عبد الحميد**

مدير المركز

**محمود عبد الحميد**

**مركز الحضارة العربية**
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

أشرف العوضى

# الهيش

رواية



الكتـــاب : الهـــيش
روايـــة

الكاتب : اشـــرف العـــوضى

الناشر : مركز الحضـــارة العربيـــة

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٣

رقم الإيداع : ٢٣٨٧/ ٢٠٠٣
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-291-428-X

الغلاف
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : أحمـــد أمـــين
تصحيح : زكـــريا منتصر

# إهداء

إلى روح أبي ..

ذلك العابر دون ضجيج

وإلى جدي ..

هذا الحكاء العظيم

الـذي رحـل عـنى في يـوم

ممطر

أشرف

مع إن كل الخلق من أصل طين
وكــلهم بيــنزلوا مغمضــين
بعد الدقايق والشهور والسنين
تلاقى ناس أشرار وناس طيبين
وعجبي !
صلاح جاهين

## (١)

تطلع من حوله ، لم يجد سوى نفر قليل قدموا على مضض خوفًا من تأنيب ضمائرهم فيما بعد . تفحصهم فلم يعثر في عيونهم على ذلك البريق الذي طالما رأى . أنصت إليهم لم يسمع منهم تلك البحة التي تكاد تكون بكاء في أحيان كثيرة . هم اليوم صامتون واجمون كست وجوههم لامبالاة واضحة امتزجت بشعور جماعي بالارتياح ، غير عابئين بما يموج في أعماقه وبما يحسه تجاههم في تلك اللحظة الفارقة من حياته .

غالبه شعور عارم بالدونية ، أجج ذلك الشعور جذوات حقد وكره نميا واستفحلا في قلبه حتى كادا يحرقان القرية ومن فيها ، غير أنه وسط تلك المشاعر المتضاربة بما فيها حزنه الشديد والقاسي لم يستوعب بعد معنى أن يفقد أمه ويبقى وحيدا وسطهم .

من الآن عليه وحده أن يواجههم ، من الآن يجب أن يعتمد على نفسه ، ومن هذه اللحظة لم يعد هناك من يدافع عنه أو يحميه من استخفافهم أو الاستهزاء به والتفكه عليه .

أفاق على صوت شيخه "أبو السعود" ذلك العجوز الذي هجر القرية منذ سنوات خلت وانتهى به المقام هناك حيث تتفرع من النهر الكبير ترعة المنصورية التي يخرج منها مجرى أصغر أطلق عليه الناس مجازًا بحر طناح نسبة إلى "طناح" أكبر القرى التي تقع عليه، وبدوره يتلوى هذا الوليد مخترقًا قرى وشاقًا حقولاً، عابرًا عزبًا وكفورًا في طريقه إلى عشرات من القرى التي تنتظر ماءه على أحر من الجمر، و لم يكن أبو السعود يفصح لأحد عما يراه من مكانه ذاك،

فالنهر في تلك المنطقة جبار عتيد يقذف ما في جوفه فيرى للحظات ثم سرعان ما يبتلعه مرة أخرى .

وفي ذلك المكان الذي ينفصل فيه بحر طناح عن الترعة الأم بنى أبو السعود كوخًا صغيرًا في قطعة أرض وسط الهيش الممتد على دفتيه حتى مشارف القرية فغدا من الصعب على أي إنسان اختراقه نظرًا لكثافة الغاب والحلفه وأشجار السنط التي تشابكت فيما بينها مكونة ما يشبه السياج وأيضًا لامتلائه بعشرات الحيوانات والزواحف التي استوطنت بهذا الهيش الذي يخشاه الفلاحون ولا يقتربون منه إلا نادرًا وللضرورة القصوى عندما تضل إحدى صغار الماعز أو الغنم وتدخله فيكون تتبعها داخل هذا الهيش القاتل ضربًا من الجنون أو مخاطرة غير محسوبة . فلم ينس الناس كيف كانوا يسمعون ذلك الفحيح المكبوت الذي يشتد عندما يكون القمر بدرًا وينصتون لزحف هذا الجسد الهائل الذي تتكسر أعواد الغاب وشجيرات السنط تحت وطأته الخرافية عندما يلقى بثقله المهيب في النهر محدثًا دوامات من الأمواج العاتية التي تضرب من فرط قوتها بالشاطئ الآخر من النهر مكونة ما يشبه النافورة التي رآها بعضهم وسط الميدان الكبير بالمنصورة .

وحده أبو السعود من جرؤ على حرق مساحة من هذا الهيش. ولم يخبر أحدا بما وجد بعد الحريق الهائل الذي استمر عدة أيام كان الصراخ والنباح والعواء والمواء والفحيح يخفت فيها شيئًا فشيئًا .

وبعد تنظيف المكان بدأ في إحاطة القطعة التي حرقها بسياج من السلك الشائك وزرع حولها نبات الشيح وغرس فيها بعض شجيرات الخيار والطماطم ثم نثر عليها قليلاً من الجرجير والفجل فكان ما تجود به هذه الجرفة الصغيرة من الأرض حيث يسميها الناس جرفة لشدة قربها من النهر القوى العاتي ولتوقع أن يجرفها النهر في

غضبة من غضباته؛ هي كل ما يعتمد عليه في حياته.

أما لماذا ترك أبو السعود قريته التي لا تبعد عن هذا المكان سوى دقائق معدودات لرجل يركب مطيته فلهذا قصة طويلة تناقلها الناس عبر أكثر من عشرين عامًا فيها نمت وكبرت حتى شارفت أن تكون أسطورة من أساطير الفلاحين الكثيرة التي لا تنتهي لأنهم سرعان ما يخترعون أشياء جديدة ينسجون من حولها الكثير من الخرافات ثم يصدقونها بعد ذلك.

هدأ أبو السعود من روع الفتى بضمه إليه محتويًا ضعفه وانكساره بعد أن مسح دموعه ثم التفتا حيث مندور التربي الذي بادرهما بسؤال لم يخطر على بالهما ولم يفكرا فيه:

- أين سندفن المرأة يا عم أبو السعود؟

وفي هذه اللحظة التي همّ فيها الشيخ بالإجابة كان لمنصور الزنكلوني شيخ البلد رأي قاس وغليظ بأن دفن مثل تلك المرأة في مقابرهم هو إهانة وأذى لأمواتهم المشمولين برحمة الله، لأنها نجس ورجس من عمل الشيطان، ولكن الزنكلوني الذي كان إلى حد كبير يشبه كيس القطن بعد أن يكبسه الرجال بأقدامهم الجافة المعروقة رأى ما يشبه الجمر قبل أن يكتمل احتراقه في عيون أبو السعود والقلة الباقية من الرجال الذين جاءوا لتشييع المرأة التي لا يعلمون من أين أتت هي وابنها، الذي أصبح فيما بعد رجلا ينتحب أمام نعش أمه والذي لا يجد مكانًا لدفنها وسط هذه القبور المتناثرة التي تسع الكثير.

وإن كان جابر الشنواني تاجر الماشية قد أنهى المسألة بأن أمر مندور التربي بأن يدفنها مع زوجته اعتدال التي فارقت الدنيا منذ عشرين عاما أو يزيد ومع ذلك لم يتزوج بغيرها، فإن الأمر لم ينته في قلب الفتى بل زاد في إشعال جذوات الغضب والحقد في أعماقه ولم

ينس لسنوات طويلة صورة شيخ البلد وهو يقول إن تلك المرأة نجاسة ولا يجب أن تدفن مع أمواتهم الأبرار. تفحص بعينيه الدامعتين قبورهم التي يدعى شيخ البلد أنها تعج بالأبرار، ثم أيقن أنهم وإن استطاعوا خلق ماض مشرف لأمواتهم فهم بالتأكيد لن يستطيعوا أن يدخلوهم جنة الله التي وعد بها المتقين ولن يستطيعوا أن ينجوهم من عذاب القبر أو ضربات الشجاع الأقرع التي لا ترحم على حد قول الشيخ مندور الذي يكون في قمة انتشائه وزهوه يوم يرى الرعب وقد دب في قلوب النفر القليل الذي يجلس للاستماع إلى درسه الذي يلقيه عقب صلاة العصر من يوم الخميس.

وإذا كان فاحش قولهم قد أصاب أمه لسنوات طويلة فإنه كان يعتقد في أعماقه أنها أشرفهم جميعًا. صحيح أنه لا يعلم من أبوه! وصحيح أنه كان يسمع كلامهم عنها الذي كان يشبه دوي النحل وطنينه يقترب منه دون أن يعرف مصدره أو كيف يتحاشاه !! ولم يستطيع رغم مراقبته لها لأيام كثيرة أن يمسك دليلاً واحدًا على اتهامها بالعهر وأنها تستقبل من تريد في عشة من الخوص قرب ساقية المناصرة.

وفي اللحظة التي أهال فيها مندور التراب على جسد المرأة الذي نال من الشقاء ما لم ينله جسد آخر قرأ أبو السعود بعضًا من آي الذكر وأخذ في تلقين المرأة دعاء كان له مفعول السحر على الحضور وكأنهم يسمعونه للمرة الأولى، فقد كان صوت "أبو السعود" مملوءًا بالخشوع والورع ممزوجًا بمرارة وألم عميقين كسيا ملامح وجهه الأشيب بطوفان من الحزن حاول أن يكبحه ولكنه عجز فانسابت دموعه، وببكائه بكى الناس عندما قال:

" اعلمي يا أمة الله يا بنت آدم وحواء، أنك متّ، وأن الموت حق، وأنه في هذه الساعة المباركة سينزل عليك ملكان رفيقان شفوقان

حلـيمان على من أطاع الله ورسوله ،غليظان شديدان على من عصى الله ورسـوله، فـإن أجلسـاك وسألاك الأولى عن ربك فقولي لهم ربى الله، وإن سـألاك الـثانية عـن ديـنك فقولـي لهـم بلسان فصيح ديني الإسـلام . وإن سـألاك عن الرجل الذي بعث فيكم فقولي بلا خوف مـنهما ولا جـزع محمـد بـن عبد الله، أدى رسالته ووفى أمانته ونصح الأمـة وكشـف الغمـة وتـركها عـلى المحجـة البيضاء ليلها كنهارها . ونسـأل الله أن يـنجيك مـن عذاب القبر وضمته، وأن يدخلك فسيح جناته وإنا لله وإنا إليه راجعون".

ثم تطلع أبو السعود من حوله وقد ابتلت لحيته بدموعه التي عجز عـن السيطرة عليها فلم يجد أحدًا من المشيعين قد بقى غيره والفتى المكـلوم فـأخذه بيده واتجها سويًّا من وسط القبور الصامتة إلى خارج القرية حيث يعيش .

أما الفتى فقد التفت إلى قبر أمه الذي لم يعد يرى منه سوى شاهده الأبيض !! وفكر : أي مصير ستواجه ؟ ثم تدافعت في أعماقه الأسئلة التي طالما أنهكته وأعجزته عن التفكير .

هل صحيح أن أمه كانت تنتقل من فراش إلى آخر من أجل تدبير نفقاتـه قبل أن يحترف الصنعة التي يرتزق منها الآن ؟ ومن أبوه ؟ هل هو حقا أحد رجالات القرية الكبار كما سمع من الخالة أمونة ذات مرة وهـي تهمـس إلى أمـه عصـر يوم جلست فيه المرأتان تجتران ذكريات قديمـة ومؤلمـة أمـام مـنزلهم المتواضـع والذي كان "عشة" من الخشب وبعـض ألـواح الصـاج وبقايا كرتون مغطى بسعف النخيل ومشمع مـن البلاستيك حتى يقيهم الأمطار التي كانت تتلف متاعهم القليل الذي يسترهم عن العيون النهمة ولا يقيهم من البرد الذي لا يكترث بكـل هـذا التحصـين ويـنفذ إلى داخـل العظـام ولا تفـلح معه ركية الأخشاب التي يشعلها ولا أنفاس المعسل التي يتبادلها هو وأمه .

ظل هذه السؤال المصيري يطبق دائمًا على لحظات سعادته القليلة فيئدها قبل أن يكتمل نموها .

وصلا حيث يعيش أبو السعود، كان المكان نظيفًا ومرتبًا :بناء صغير من الطوب اللبن أمامه مصطبة كبيرة فوقها تكعيبة عنب تعانقت مع شجرة لبلاب وفي أقصى اليسار يوجد زير وضع تحت تعريشة من سعف النخيل حتى تقيه لظى الشمس في مثل هذا المكان الموحش وحول الكوخ زرع الشيخ نباتاته التي يقتات منها .

غمره أبو السعود بعطفه وحنانه وطلب منه أن يدعو لأمه بالرحمة والمغفرة لأنها الآن بين يدي العزيز الجبار، غير أنه في أعمق أعماقه وفي مكان لم يصله من قبل وجد صوتًا آخر يناجيه ويحادثه، كان يسمعه للمرة الأولى، كان جليًا واضحًا، خبيثًا مدمرًا، حذره ذلك الصوت من الدعاء لها، ثم أنبأه إن كانت فاجرة كما يقولون فلينزلها الله إلى الدرك الأسفل من النار ويذيقها من عذابه الشديد، وإن كان ما يقولونه افتراء وكذبًا فليرحمها الرب برحمته الواسعة وليدخلها فسيح جناته .

لم يمس الفتى الطعام الذي وضعه أبو السعود أمامه ولا حتى ذاق كوب الشاي الذي كان يفضله دائمًا من شيخه الذي يصنعه على الأخشاب في "المنقد" القديم .

انتابه شعور عارم بالخوف، ولم يكن شعوره بالوحدة بعد وفاة أمه هو ما يخيفه في تلك اللحظة، ولم يكن أيضًا من تلك الأصوات التي تتنامى إلى مسمعه قادمة من الهيش غير البعيد عن كوخ الشيخ، بل كان يخاف من مرض الصرع الذي لا يعرف متى أصابه أول مرة ويخشى أن تباغته النوبة وهو قريب من النهر كعادته كل صباح فيجرفه التيار ويبتلعه كما إبتلع الكثيرين من قبل .

لا يعلم لماذا قفز إلى ذهنه الآن كيف أنه يوم مرضت أمه مرضها

الأخير وذهب يجر نفسه جرًا حيث سعد النملة حلاق القرية كيف أبى وامتنع أن يذهب معه لإسعافها بل زاد في تعسفه بأن نهره ونعته بالفاجر ابن الفاجرة .

ولم يدر كيف وهو في هذه الحال وفى هذا البركان الذي يغلى في أعماقه تسرب إليه النوم كما تسربت الحياة من وجه أمه الذي كان لا يزال محتفظا بمسحة من جمال رغم الستين عامًا من الشقاء التي حملتها على كاهلها، ولكنه قبل أن ينام كان قد عزم على الانتقام منهم جميعًا، فعلى الرغم من كل تلك الصفات ينعتونه بها . كان هو الوحيد الذي يعلم ما يجهلونه حتى عن أنفسهم، وهو الوحيد الذي كشف سترهم وكشف خبايا نسائهم، ففي الوقت الذي كان يغشاهم فيه النوم ويهجم وحش الظلام الكثيف على القرية، كان وحده يجوب شوارعهم. في قلب الليل وفى الظلام الدامس وتحت سيول المطر ومع الرياح العاتية كان يراقبهم من أجل ذلك اليوم الذي أيقن أنه اقترب، وفى تلك اللحظات التي كانوا يتشدقون فيها بالفضيلة ويخرجون من الجامع الكبير بعد صلاة الجمعة ولا تزال أصابعهم تعبث بتلك المسابح الطويلة القديمة، كان يدرك في أي مستنقع يعيشون، وفى أي بؤرة من بؤر الفساد يرتعون، ثم ما لبث أن قام من نومه مفزوعًا وقد دخل في نوبة صرع حادة فختم الشيخ أبو السعود صلاته وهب لنجدته .

## (٢)

عندما عاد إلى القرية بعد خمسة أيام قضاها في كنف " أبو السعود " ورعايته، كان يخشى تلك اللحظة التي يدخل فيها إلى الكوخ ولا يجد أمه في انتظاره وقد أعدت له كعادتها وجبة العشاء بعد عناء يوم كامل في توزيعه الجرار والقلل التي يصنعها بنفسه ثم يدور بها في الكفور والعزب القريبة لبيعها.

فعلى الرغم من ضآلة تكوين جسمه المائل إلى النحافة وعينيه الغائرتين كأنهما حفرتان داخل وجهه، فإنه كان يملك أصابع طويلة وحساسة فلقد كان أشهر من يصنع الفخاريات في الناحية كلها.

وكما أن القلل المجلوبة من الصعيد التي يسمونها القلل القناوي ذات شهرة كبيرة فإن "القلل" و"الطواجن" و"البلاليص" و"مساقي الحمام والطيور" التي كان يجيد صنعها كانت ذات شهرة كبيرة أيضًا بعد أن قذفت به أمه صبيحة يوم ممطر إلى فاخورة المعلم هريدي الصعيدي الذي تشرب على يديه سر الصنعة وفنونها! فكم عانى من ضربات هريدي الموجعة ومن تعنيفه الذي كان يصل إلى حد البصق في الوجه ونعته بتلك الصفة التي يبدو أنها ستلازمه كثيرًا فيما بعد وهى "يا فاجر يا ابن الفاجرة "وذلك كلما أخطأ في صناعة قطعة أو احترقت منه أخرى في الفرن الكبير ..

وهريدى الذي كان قد جاوز السبعين لم يتزوج ولم يعرف الناس له بلدًا محددًا منذ حط على القرية شأنه شأن كثير من أبناء الجنوب الذين يحلو لهم المقام في بحري.

وكثيرًا ما يتساءل الناس لماذا هم بالتحديد من ينسون مسقط رأسهم ؟ ولماذا يطيب لهم المقام في قرانا ومدننا الشمالية؟ وهل صحيح أن معظمهم فر من ثأر قديم أم أن الجدب والفقر هو الذي دفعهم إلى الرحيل ؟ .

إلا أن هريدي الذي اقتطع قطعة صغيرة من الأرض بجوار هويس الري الكبير سرعان ما أحاطها بسياج من الطوب اللبن ثم بدأ في بناء ذلك الفرن الضخم قد فوجئ الناس به بعد عدة أيام في سوق الثلاثاء وقد فرش أمامه مجموعة كبيرة من القلل والبلاليص والأباريق التي أهدى مجموعة منها إلى الشيخ برعي خادم المسجد ليضعها في دورات المياه في الجامع الكبير وفي أحيان كثيرة يجلس في مكانه المحبب داخل الفاخورة والذي يطل مباشرة على النهر بعد أن يكون الفتى قد صنع له كوبًا من الشاي الصعيدي الداكن اللون ثم يبدأ في اجترار ذكرياته عن بلده هناك وعن أهله وناسه الذين يراهم طيفًا جميلاً في خياله ثم سرعان ما يعود إلى واقعه ناهرًا الفتى آمرًا إياه بأن يكمل عمله الذي لم ينته منه، ورغم قسوة هريدي الواضحة في تعليمه فنون الصنعة فإنه كان يحبه ويرى فيه فنانًا موهوبًا قادرًا على تحويل الطين الأصم إلى قطع فنية متميزة .

ظهر ذلك جليًا عندما رآه ذات يوم وقد ترك ما في يده من عمل وأخذ قطعة من الطين كانت قد اختمرت وأصبحت جاهزة للتشكيل ثم بدأ في نحتها على شكل حصان بديع، حتى ذلك اليوم الذي رأى فيه الفتى الصغير، أو الفاجر كما كان يناديه دائمًا، بذلك البريق وتلك الجرأة التي كانت تكمن في عينيه، ممسكًا بين يديه تمثالاً صغيرًا لهريدي نفسه .

أمسك هريدى التمثال وتفحصه جيدا فوجد الفتى بارعًا إلى درجة كبيرة فقد استطاع أن يأخذ أبرز ما في الرجل شاربه الكث

وعمامته الضخمة ولم ينس حتى فمه الخالي من الأسنان .

ولما كان التمثال متقنًا وصنعه الفتى باسمًا ضاحكًا رغم أن هريدى الطيب القلب لا يضحك إلا نادرًا ! قرر هريدي ألا يعاقبه لتركه كثيرًا من القطع تحترق داخل الفرن، بل وزاد على ذلك بأن خصص له وقتًا يصنع فيه ما يشاء من تحف وتماثيل، بل إنه وافق على عرضها للبيع ضمن ما يصنعانه ويعرضانه كل ثلاثاء في سوق القرية الكبير ويكون ثمنها للفتى .

ولم ينس الفتى أيضًا كيف أن هريدى نفسه ساعده في استكمال مجسم لأسد ضخم. وبعد أن انتهيا من صنعه، أحضر له الأصباغ والفرش وبدأا في تلوينه سويًّا، وكم كانت سعادتهما عندما رأى حسنين ابن العمدة سلامة ذلك التمثال البديع الصنعة رابضًا أمام فاخورة هريدى في انتظار من يشتريه .

وما هي إلا لحظات حتى كان اثنان من الخفر يحملانه ليستقر بعد ذلك لسنوات طويلة أمام مضيفة العمدة سلامة ليبهر كل من تقع عليه عيناه ويتساءل الناس دائمًا ذلك السؤال التقليدي :

"مين اللى عمل الأسد الجميل دا يا حضرة العمدة ؟"

فيجيب العمدة بافتخار : اللي عمله واحد من عيالنا .

وكم كانت سعادة أمه بالغة عندما تذهب إلى المضيفة لتنظيفها فترى رجالات البوليس والنيابة وشيوخ البلد والأعيان وهم يقفون مبهورين أمام الأسد الفخاري الكبير .

وشيئًا فشيئًا ذاعت شهرة الفتى فأتاه الناس طالبين صناعة مزهريات أو صناعة خيول للصبية أو حتى قلل وأباريق السبوع مختلفة الأشكال والأحجام .

وفى الوقت الذي كان ساعد الفتى فيه يشتد ويقوى كانت الشيخوخة التي لا فكاك منها تطبق على جسد هريدى الذي تقوس

فارتعشت يداه ولم تعودا تقويان على تشكيل الطين وتحويله إلى منافع للناس. غير أن الفتى تساءل وقتها ودموعه تنساب : لماذا تعانده الأيام وتسلبه أحد رجلين أحباه وعطفا عليه فظل حتى آخر لحظة في حياة هريدي خادما وابنا وفيا بعد أن عجز الرجل تمامًا عن العمل .

أما أحلى وأمتع لحظات عمر الفتى فكانت عندما كان يأتي شيخه أبو السعود لزيارة هريدى بعد أن نال منه الزمن وتمكن فأصبح طريح الفراش، لكنه رغم ذلك كان حاضر الذهن قوي الملاحظة حكاء كما اعتاد عليه دائمًا، وما أن يأتي أبو السعود محملاً بخيرات الأرض التي يزرعها ويجلس إلى جوار هريدى ويسرع الفتى لعمل الشاي الذي يفضله الشيخان حتى يبدأ طوفان الحكايات الجميلة التي لا يعكر صفوها سوى صوت إحداهن جاءت تشترى إحدى القطع فيقوم الفتى من مكانه مكرهًا مرغمًا بعد أن يطلب منهما ألا يكملا الحكاية حتى يعود. كانا يحبانه ويعطفان عليه وكانا يعرفان عنه أكثر مما يعرف عن نفسه .

وهكذا لم يعد أحد يحس به أو يسمعه سوى شيخه أبو السعود بعد أن غيب الموت هريدى الذي ترك له الفاخورة بكل ما فيها من أدوات بعد أن علمه صنعة يقتات منها هو وأمه التي وهنت هي الأخرى ولم تعد تقوى على الخدمة .

أفاق الفتى من أفكاره التي أخذته بعيدًا ودفع باب الكوخ بعد أن تمنى من أعماقه أن يجدها أمامه وأن يكون رحيلها عنه مجرد كابوس مزعج ، ولكن الموت القادر دائمًا على خطف من نحب في الوقت الذي يشاء كان جاثمًا على المكان ، فقد كان الكوخ خاليًا من طعام أمه ومن رائحة أمه ومن حكايات أمه التي كانت تجيد، وكان خاليًا أيضًا من السند الذي كان يعينه، ومن القلب الذي كان يحبه، الآن فقط أدرك كم هو وحيد في هذه الدنيا الغابة، وفى هذه القرية التي لا ترحم، فانخرط في البكاء .

## (٣)

صاحت منيرة الدكش وهى تحاول إزاحة "عقدة" كبيرة من القش كانت قد استعصت عليها بفعل الأمطار فالتصقت بسطح منزلها الطيني ذي الطابق الواحد، لم تسمعها ابنتها سعاد لأنها كانت في هذه اللحظة تدخل إلى "المندرة الجوانية" بعد أن خلعت ملابسها فبدت عارية تمامًا وهى تتجه إلى طشت الحموم .

كانت منيرة الدكش زوجة لعليش جاد الله تقترب من الأربعين، شديدة عهر العينين لا تعبأ بزوجها الذي لا يستطيع التفاهم معها لارتفاع صوتها وعلو مكانتها بالنسبة إليه فهي ابنة الصباحي الدكش شيخ العربجية في موقف الكارو .

أما عليش الذي كان إلى عهد قريب أحد صبيان الصباحي حتى اعتلى منيرة ذات يوم بعد أن ضبطها الرجال في غرفة الصول متولي عسكري المرور الذي يرى دائمًا قبل كل صلاة يزاحم الناس في الوضوء على حنفية الماء القريبة من كشك المرور ثم يدخل في التمتمة بآيات من قصار السور بعدها ينهمك في صلاته غير مكترث بعشرات من "البرايز الفضية" التي يلقيها السائقون إليه اتقاء دفتر مخالفاته الذي لا يرحم .

ولكن منيرة كانت لا تزال سليطة اللسان، وقحة، لم تعبأ بأحد حتى بعد أن أخرجت من تحت متولي الذي لقنه صبيان المعلم علقه ساخنة وكان أكثرهم بطشًا به عليش جاد الله حتى فقد الرجل ثلاثا من أسنانه الأمامية .

كان الصباحي يمتلك أكثر من خمس عشرة عربة من عربات

الكـارو ويعمـل لديه عشرات من العمال بين "عربجية" و"كلافين" و"حمـالين" و"عتالين" وكان قد فقد زوجته التي دهسها قطار الساعة الخامسة ذات يوم، هكذا قال هو، أما الناس فلسنوات طويلة قالوا إنه وجدهـا في أحضـان أحد تجار "السبلة" فما كان منه سوى خنقها ثم رمـى جثتها عـلى قضـبان قطـار الدلتا المتهالك. ولم يتزوج بعد هذه الحادثة واكتفى بتربية ابنته الوحيدة منيرة.

وما كان في كشك المرور لم يكن المرة الأولى لمنيرة التي ترتكب فيها مـثل هـذا الفعـل، إذ يقال إنها تنقلت بين أحضان العربجية منذ سن مـبكرة، حـتى فجّر زكي أبو دماغ حلاق الحمير مفاجأة أشعلت جلسة الحشـيش عـندما قال في غرزة شوقي البكرور بعد أن صعدت أنفاس الصـنف إلى قـاع يافوخه فاحمرت عيناه وجحظتا حتى ظن الجميع أنه سيفارق الدنيا وغابة الجوزة بين شفتيه المائلتين إلى الزرقة.

قال أبو دماغ متفاخرًا:

- أنا أول من ركب منيرة الدكش!

وحكـى كيـف أنهـا كـانت في الـرابعة عشرة عندما استدعاه أحد الصـبية ليعـالج حصـانًا كسرت ساقه عند مطلع الكورنيش الصعب، وأنـه عـندما دخـل الزريـبة كـان العمـال يتـناولون طعام الغذاء عند "سـيدة السوداني" في عشتها قرب موقف الكارو، وأنه لم يكن داخل الزريـبة غير منيرة التي كانت ترتدى جلبابًا رجاليًا لم يستطع أن يخفي نهديها البارزين اللذين لم يكفا عن الاهتزاز والرجرجة، فسال لعاب أبـو دمـاغ واستثير إلى حد الشبق بعد أن ثبت ناظريه على مؤخرتها الكبيرة بالنسبة لفتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة بعد.

كانت غير عابئة بنظراته الشهوانية، فأبو دماغ يقترب من الخمسين قميء أصلع الرأس، دائمًا وأبدًا يرتدى جلبابًا متسخًا عليه بالطو كالح لم يعد يعرف لونه الحقيقي، وعندما تقترب منه تشم خليطًا غريبًا من

روائح خيول مريضة وحمير في مرحلة النفاس .

ولأن أبـو دمـاغ كما يقول "كان معمر دماغه بجحرين" عـز عليـه أن يترك هذه الثمرة اليانعة دون أن ينالها !! هجم ذو الرائحة الكريهة عـلى الفتاة التي كانت ممسكة بخرطوم المياه تنظف مهرًا صغيرًا وتمسد على ظهره اللامع .

.. احـتواها في حـركة مباغـتة بـين ذراعيـه، جـرها جرًّا إلى حجرة العـلف، كـانت غرفة كبيرة مليئة بالقش والتبن، استغاثت ولكن من يسـمعها في تـلك السـاعة من الظهيرة وقد استسلم الجميع للنعاس تحت شجر الجازورين على شط النهر أمام عشة سيدة السوداني، مزق سترها فبان مكنونها، ولم يتركها إلا وخيط من الدم الطازج الرفيع قد عرف طريقه بين فخذيها، لم تبك ولم تخبر أباها .

ولكنها في هذه اللحظة بالذات كانت قد تحولت إلى أنثى لا تشبع والى امـرأة شـبقه تريد الفعل نفسه بعد أن تبلدت مشاعرها وفقدت حياءهـا، والعجيـب أن زكى "أبو دماغ" حاول النيل منها مرة أخرى بعـد أن عـلم أنهـا استعذبت ذلك وأن صبيان أبيها يتبادلونها فيما بيـنهم، فما كان منها إلا أن صفعته صفعة قوية وبصقت في وجهه! ولم تكـتف بذلـك بـل طلـبت مـن عليش جاد الله أن يلقن "أبو دماغ" درسًا قاسيًا دون أن يعرف لماذا يضرب حلاق الحمير .

كـان عـليش ضـخم الجثة عتلاً يبدو لمن لا يعرفه جيدًا غبيًّا بليدًا، يخشـاه العمـال ويتحاشـونه رغـم أنه مجرد خادم في إسطبل الصباحي الدكش .

ومنذ تشرد بعد وفاة أبيه والمال أعز إليه من نور عينيه لذا لم يكن غريـبًا أن يتراهـن ذات يـوم مع شعبان توكل ناظر عزبة الافندى التي تقـع شمـال القـرية عـلى أنـه قادر على دخول الهيش وحده ليلاً، وأنه سـيدلل عـلى دخولـه حقًّا بأن يأتي لهم بعدة ثمار من الجميزة الكبيرة

التي تبدو باسقة شامخة وسط الهيش ولم يتذوق أكلها سوى القليلين، وكان الجميع يمنون أنفسهم ذات يوم بتذوق هذه الثمار التي يرونها من بعيد ولا يجرؤون على الاقتراب منها !!

بعد أن صدقوا تلك الحكاية التي روج لها الشيخ مندور الترب بأن ثمار تلك الشجرة تجعل الرجل فحلاً في فراشه وإنه، أي الشيخ مندور، قد طاف على زوجاته الأربع في ليلة واحدة بعد أن أكل من هذه الشجرة وأن نساءه لم ينسين تلك الليلة أبدًا؟ ولكنهم أيضًا يؤمنون بأن هذه الجميزة مسكونة وأن جذعها الكبير يفتح ليلاً لتنطلق منه أفواج الجن الأحمر وأن الصراخ الذي يسمعونه ليلا في الهيش يتزامن مع لحظة الخروج اليومي لفوج الجن الذي يسكن الجميزة .

ولكن عليش، من فقد كل شيء ذات يوم، كان الجنيه الذهبي الذي سيفوز به كفيلاً بأن يجعله يواجه كل شياطين الأرض. صحيح أن قلبه كاد يتوقف عندما سمع خشخشة وسط الهيش كان مصدرها قط برى يطارد فأرًا لكنه في النهاية عاد إليهم وفى جيبه عدة ثمرات وجدها على الأرض بجانب الشجرة العجوز. وإن كان الرجال في غرزة البكرور قد وصفوه "بالشجيع" فإنهم لم يعلموا أنه قد بال على نفسه مرتين حتى عاد إليهم .

أما الصباحي الدكش والد منيرة فقد كان في نهايات العقد السادس، مصابًا بأمراض عدة عششت في صدره ودمه فجعلته غير قادر على التنفس في أحيان كثيرة، و كان هاجسه أن يطمئن على ابنته قبل أن يوارى الثرى ويرتاح إلى أن ماله الذي جمعه على مدى أكثر من خمسين عامًا لن يذهب إلى من لا يستحقه. كان يحلم أن يزوج ابنته لأحد الرجال المحترمين، ولكن سيرتها السيئة وسيرة أمها من قبل قد حالتا دون ذلك فمن يرضى لنفسه أن يتزوج فتاة مثل

منيرة حتى ولو كانت سترث أسطولاً من عربات الكارو وزريبة مليئة بـالخيول وأرضًـا قريـبة مـن البحر كما يطلق الأهالي هنا على ذلك الفـرع مـن الـنيل، كمـا سـترث أيضًـا حقل نخيل قريب من فاخورة هـريدى الصـعيدى، لهـذا لم يجـد الصـباحي الدكـش مفـرًا سـوى أن يـزوجها لأحـد صـبيانه ولم يكـن ذلك الصبي المحظوظ سوى عليـش جـاد الله .

## (٤)

يقولـون إن عـليش جاد الله الذي تزوج منيرة ابنة الدكش كان في واقـع الحـال ابـنًا للبسيونى جاد الله أحد رجالات القرية البارزين في الـزمن الغابـر، كـان مقاول أنفار يأخذ من الحكومة الملكية مقاولات حفـر وتوسـيع لـلترع والمصارف والمجارى المائية التي تتفرع من النيل وتشـكل شبكة كبيرة تغذى الدلتا كلها، ولكنه في الأخير استقر على بحر طناح وبالتحديد في تلك القرية التي يحيطها الهيش من كل جانب إحاطة الأفعى بفريستها .

كـان البسيونى مسؤولا عن مئات من عمال التراحيل فكان بينهم مـلكًا متوجًا وسلطانًا مهابًا حتى استطاعت إحدى بناتهم أن تروض ذلـك الأسـد العجوز، كانت فائقة الجمال خمرية ذات عينين شديدتي السـواد والاتسـاع، كـانت مشتهاة من قبل كل من يراها، عصية على الجميـع، أوقعـته في شباكها ولم تتركه إلا زوجًا مريضًا منهكًا غير قادر عـلى كـبح جماحهـا، فـبدأ يشـك في كل من حولـه حتى ابنه الوحيد عليش الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة بعد، ومع ذلك فقد ألقى بـه خارج منزل أمه في ليلة شديدة البرودة . ولم يجد الصبي مأوى سوى إسطبل الدكش، ومن تلك الليلة تحول عليش إلى صبي عربجي يعلف الخيول ويهتم بنظافتها وعلاجها كما تعلم فيما بعد .

ورغم ما كان يكابده في عمله إلا أن الصباحي الدكش كان يعامله معامـلة قاسـية جعلـته ينـتحي بنفسـه في أحيان كثيرة ركنًا من أركان الإسطبل وينخرط في البكاء، وكثيرًا ما فكر في ترك هذا المكان الكريه

ولكـن أيـن يذهـب وخصوصًـا بعـد وفاة أبيه بنوبة قلبية إثر تحويجة أعطاها له سعد النملة الحلاق ظنًّا من العجوز أنها ستعيده إلى سابق عهـده ليقهـر تـلك الـنظرة الـتي يراها في عيني زوجته الشابة صباح مساء .

ولأن الـرجل كـان قـد كـتب كـل ما يملك للشابة الجميلة التي ما لبثت أن باعت ذلك الميراث لسعدون النبوي تاجر الأسمنت وغادرت بهـذه الـثروة إلى قريـتها الواقعـة بالقـرب من ديرب نجم وهي التي دخلت القرية ذات يوم لا تملك من الدنيا سوى دهائها وفتنتها .

سـاعتها أيقـن عـليش أن الحيـاة الـرغدة التي عاشها في صغره قد ولـت وأدبـرت، وأن الأيـام القادمـة هـي أيـام شقاء لا محالة، فقرر في أعماقـه أن اقترابـه والتصـاقه بالصـباحي الدكـش الـذي يكرهه من الممكن أن يكون سبب ثرائه وغناه في يوم من الأيام .

كـان عـليش شرسًـا دائم السباب لمن هم أضعف منه، كثير الريـاء والمداهـنة للصـباحي ورفاقـه الذين وجدوا فيه نعم الفتى الذي يقوم عـلى خدمـتهم ليـلاً فى أثناء سهرهم في تلك العشة التي بنوها على أرض الصـباحي المطـلة على البحر بجانب فاخورة هريدي الصعيدي، أو حتى في غرزة البكرور. كان عليش ماهرًا حاذقًا في تنظيف الشيش وإشعال الفحم وتقطيع الحشيش إلى قطع متساوية ثم تنظيف الحجارة ورص المعسـل الـذي كـان يشـتريه خصيصًـا من عند عماشة التاجر الأشهر في المنصورة .

وعـليش الـذي اعتمدوا عليه في شراء الصنف كان خبيرًا في تمييز الأصـناف الجيـدة مـن الرديـئة وكان أيضًا خبيرًا في سرقتهم وغشهم بـزيادة السـعر كـثيرًا، ورغـم عـلمهم بذلـك فقـد تغافـلوا عنه لهذه المهارات التي يتمتع بها .

ورغم ما حدث داخل كشك المرور ورغـم علـم عليـش أن منـيرة

ابنة معلمه عاهرة موهوبة وأن كثيرًا من العربجية قد نالوها إلا أنه لم يحاول أن يسلك ما سلكوا تجاهها لخوفه من بطشها وطول لسانها، ولم يعلم لماذا كانت تعامله منيرة بهذا الشكل من القسوة رغم ما يظهره لها من احترام وتقدير مصطنعين .

حتى كان ذلك الصباح الذي استدعاه فيه الصباحي قبل أن يبدأ في تجهيز الخيول والعربات و لم ينس بعد ذلك هذا الصباح أبدًا إذ كان صباحًا عاصفًا ممطرًا .

كان الصباحي متكئًا على مسند من القطن ممسكًا بيد مرتعشة غابة الجوزة وقد خرج من طاقتي أنفه الواسعتين دخان كثيف. كان يبدو على وجه الرجل الإنكسار للمرة الأولى، ففي تلك الساعة كان خافض الصوت، مجهدًا، وبدا له في عمره الحقيقي حيث أهمل للمرة الأولى أيضا شعره وبدا أشيب أزرق بعد أن زالت عنه الصبغة ولم يطلب النملة الحلاق كعادته .

لم يصدق عليش نفسه وهو منهمك في تكسير قطع الفحم لمعلمه ورص كرسى من الدخان إلا والصباحي الذي كان الذل والمهانة قد ارتسما في تجاعيد وجهه يخرج من تحت المسند الذي يتكئ عليه كيسًا أسود قذرًا لا يبدو أن في أحشائه ألفًا من الجنيهات .

ثم أخبره بكلمات مقتضبة أن زواجه من منيرة ابنته الخميس القادم وأن عليه أن يجهز منزله القريب من النهر بهذا المبلغ، حيث على ما يبدو أن البسيونى جاد الله كان قد نسى هذا المنزل فلم يكتبه باسم زوجته الشابة، فكان هذا البناء الطيني ذو الطابق الواحد هو ما تبقى لعليش من ثروة أبيه الضائعة في أحضان فتاة التراحيل .

لم يهتم عليش كثيرًا بهمسات الرجال عن منيرة ولا تعليقاتهم اللاذعة التي تصل إليه عبر جواسيسه بينهم، وخصوصًا بعد أن ظهرت عليه النعمة، فقد تبدل حاله وظهرت عليه سيماء العز والجاه.

ولكن عليش الذي أصبح الآمر الناهي في الإسطبل وفى موقف الكارو بعد أن ترك له الصباحي الدكش الخيط والمخيط كما يقولون بعد انكساره وذله منذ أن ضبطت ابنته في أحضان الصول متولي - لم يكن يضمر حقدًا وشرًا لأحد بقدر ما يضمر على ذلك الفتى صانع الفخار الذي يدرك جيدًا أن زوجته لا تروى شبقها إلا في أحضانه .

وإن كان الدكش قد قتل زوجته منذ أكثر من عشرين عامًا فإنه لم يستطع أن يفعلها مع ابنته على الرغم من كون منيرة نسخة طبق الأصل من أمها، وكان يشعر أن رب العالمين أراد أن ينتقم منه في دنياه قبل أن يحاسبه على جريمته تلك يوم القيامة، وإن كان الدكش قد أحس بالندم فإن عاره وفضيحته أصبحا قيدًا ثقيلاً وحملاً ينوء به، فلم يعد يغادر منزله إلا نادرًا وترك إدارة الإسطبل لعليش الذي استطاع بمهارة وصفاقة أن يقود كل هؤلاء العربجية السيئى الأخلاق ويتغلب على مكرهم ودهائهم لمحاولة سرقة الإيراد اليومي للعربات، ومن خالف أوامره الصارمة طرده فورًا، وهكذا انضبطت البقية المتبقية منهم .

ولكن ما كان يؤرق عليش هو سوء سلوك زوجته سليطة اللسان التي دائمًا ما تذكره أنه صنيعة أبيها وأنه لا يساوي شيئًا بدون مال أبيها الذي يدير، لهذا لم يكن باستطاعته أن يمنعها من الخروج وفعل ما تريد خصوصًا وهو يعتقد أنه يومًا ما سيتخلص منها ولكن بعد أن ينال ما يتمنى. أما ما عكر صفوه في الفترة الأخيرة فعندما أخبره صبيانه أن زوجته تتردد كثيرًا على الفتى النحيل الذي يسكن فاخورة هريدى، وأن ذلك الفتى ابن للمرأة التي طالما وطئها عليش ورفاقه .

ورغم خطته الطويلة الأمد فقد نفد صبره، وقرر عليش الانتقام من ذلك الفتى صانع الفخار فأمر بعض صبيانه بتكسير كل الفخار

الذي يعرضه للبيع أمام فاخورة هريدى على الطريق الترابي الوحيد الذي يربط القرية بالقرى المجاورة ..

ولكن منيرة التي دفعت لفتاها ثمن ما حطم زوجها، حذرت عليش من إيذائه مره أخرى، نافية بدهاء أية علاقة لها بالفتى النحيل قائلة إنها تزوره للاطمئنان عليه حيث كانت أمه خادمة لها وأنها لم تنس أبدًا تلك المرأة الطيبة .

وبرغم كون منيرة أمًّا لفتاة جميلة ورقيقة وفى سن الزواج وبرغم إحساسها أنها مراقبة من زوجها وصبيانه المقربين إلا أن ذلك كله لم يمنعها من التردد على الفتى حيث يقيم، وخصوصًا بعد وفاة المعلم هريدي الصعيدي .

## (٥)

علـى الرغم من أن اسمه ذو جرس جميل ولا ينطقه الأهالي إلا مرة واحـدة وبسـرعة مميزة "برهان عجب جابر" وكأنهم إذا قالوا برهان لـن يعرفه أحد؛ مع ذلك كان يكرهه ويحس به قيدًا يطوق عنقه وحملاً ثقيلاً ينوء به منذ سنوات .

كان يتساءل دائمًا : أليست الأسماء هي دليل أن فلان هو ابن فلان وينتمي إلى العائلة الفلانية؟

إذن لماذا أحمل إسما لا معنى له ولا وجود لصاحبه إلا في خيال أمي، اسمًا ليس له جذور ولا يوجد من خلفه أسره ممتدة وقبور مملوءة برفات شـيوخها الذيـن رحلوا، أسرة تشاركه أفراحه وتشاطره أحزانه، أسرة يحتمي بها من غدر الزمن ومن قسوة الأيام التي لا ترحم .

كـان ينـتحب كـل عيد عندما يجلس هو وأمه انتظارًا لأحد يطرق كوخهـم الملفق من بقايا الأشياء، ولم يكن يفعلها في كثير من الأحيان سوى الخالة "أمونة" التي كانت تخفف عنهما كثيرًا مما كانا يكابدانه أو "الشـيخ أبـو السـعود" الـذي كـان يـأتي حـاملاً معه سلة مملوءة باللحم والفاكهة .

ففي تلك القرية الرابضة على شاطئ النهر من لا عزوة له يدهسه الـناس ولا يحسبون له حسابًا ولا يقيمون له وزنًا وكأنه نبت شيطاني لا جذور راسخة له في الأرض فتعصف به أية هبة ريح .

لم ينس برهان أبدًا عم "شوشة" بائع القصب عندما كان الصغار يضـايقونه كان الرجل الذي لا يكاد يرى يسأل الطفل الذي يفلح في

الإمساك به سؤاله التقليدي "إنت ابن مين يا وله؟" فإذا أجابه الطفل عن أبيه ساعتها يصمت شوشه للحظات ثم يتخذ قراره فإذا كان الطفل ابنًا لأحد رجالات البلد الكبار أصحاب الطين والعزوة ساعتها يخفض جناح اللين مع الطفل بعد أن يقول "سلم على أبوك يا حبيبي" أما إذا وقع في يده واحد من صنف برهان عجب جابر فالويل كل الويل. ساعتها ينطلق شوشة الذي اقترب من السبعين بوابل من السباب والإهانات ثم يضيف على كل ذلك بعض الضربات الموجعة على مؤخرة الصبي الذي يشيعه بقية الأولاد وهو عائد إلى منزله وكأنه أحد لصوص السوق الكبير الذين حكم العمدة بتجريسهم حتى لا يتسللوا إلى القرية مرة أخرى .

كان برهان متيقنًا تمامًا أنه ليس ثمة شخص يدعى عجب جابر من الممكن أن يكون أباه وأن أمه هي من اختلقت هذا الاسم لتداري كنه مَن فعلها، وخصوصًا وأنه في هذه اللحظة بالذات تذكر يوم سمع أمه وهى تجتر ذكرياتها مع الخالة أمونة وأنها ربما أفضت إليها باسم والده الحقيقي، ولكنه وفى شدة انتباهه وتركيزه لما تقوله اصطدمت يده بباب الكوخ فتوقفت أمه وغيرت دفة الحديث مع الخالة أمونة، تلك العجوز التي شاهدت وعاصرت وعرفت من الأسرار والحكايات ما تنوء بحمله الجبال .

تصارعت الأفكار محدثة جلبة داخل رأسه عمن يكون أبوه : هل هو حقًا شيخ البلد؟ ولكن لماذا فكر في شيخ البلد بالذات؟ هل لأن أمه عملت في بيته لفترة جاوزت العشر سنوات ؟ ولكن بماذا يفسر غلظة الرجل ورفضه دفن جثمان أمه !! .

أيكون العمدة سلامة؟ صحيح أنهم يهمسون همسًا أن الرجل الذي لا تفارق المسبحة يده ويخلى له دائمًا الصف الأول في الصلاة مهووس بالفتيات الصغيرات دون الخامسة عشرة وأنه يكون في قمة

سعادته عندما يختلي بإحداهن ممن يعملن في حقوله الشاسعة المترامية الأطراف والجميع ما زال يذكر حكاية البنت بهية ابنة إبراهيم خليفة الموظف في مصنع الغزل عندما تحرش بها وخصوصًا أنه يهوى مؤخراتهن الطرية عندما تمكن من الصغيرة في غفلة منها وأحست به من خلفها غليظًا ثقيلاً دفعته بكل ما أوتيت من قوة فسقط في المصرف وسط ذهول واندهاش كل من كان في حقل الذرة في تلك الساعة .

صحيح أن إبراهيم خليفة ترك القرية رغمًا عنه وصحيح أن الغفر لقنوا بهية درسًا قاسيًا وصل إلى حد أن حلقوا لها شعرها بالموسى وسط صراخها وبكاه كل النسه الأجيرات اللائى طالما تعرضن لما تعرضت له بهية وبالتأكيد أن أمه ذاقت من العمدة سلامة الكثير والكثير .

كان الناس يهمسون عن أمه في أمسياتهم على شاطئ البحر وفي غرزة "شوقي البكرور"، كان الهمس مثل الطنين رتيبًا خافتًا، ولكن نظراتهم اليه كانت كأشواك تنغرس في لحمه، كان ما استطاع يتحاشى تجمعاتهم .

كاد رأسه ينفجر، نظر جيدًا في تلك المرآة الصدئة المشروخة من وسطها تمامًا، كانت صورته غير واضحة المعالم مسحها بكم جلبابه الداكن. رأى نفسه اليوم كما لم يرها من قبل. كان غائر العينين ذا وجه شاحب .

ابتسم نصف ابتسامه وتحدث بصوت مسموع إلى نفسه قائلاً :

- رغم هذا الشحوب والهزال فأنا مرغوب من نسائهم، بل يفضلنني على غيري من رجالهم . ويستسلمن لشذوذي معهن في أحيان كثيرة .

ظل هذا الخاطر هاجسه لشهور طويلة حتى وهو في ذروته . ذات يوم ، سأل زبيدة الشبكشى زوجة صابر عبد الدايم كاتب محكمة

المنصورة الابتدائية الذي لا يأتي إلى القرية إلا يومي الخميس والجمعة. كان برهان يعلم أن زبيدة لا تمارس إلا عارية تمامًا، وكان يعلم أنها تميل إلى العنف قليلاً حيث لا تجد متعتها إلا هكذا، كان سؤاله غريبًا ومفاجئًا للمرأة التي تحلق في فضاءات النشوة واللذة .

كان العرق يكسو جبينها المائل إلى الاحمرار حين داهمها بسؤاله بينما اعتصرت يداه الخشنتان ثدييها الناعمي الملمس والشديدي التكور .

– لماذا تأتين جميعكن إلى كوخي ولماذا في كل مرة تردن فعلها معي لا يكون لي الخيار في التوقيت أو حتى مع من أفعلها منكن؟. ثم قام منتفضًا بينما المرأة ما تزال متقدة الرغبة لم تخمد شهوتها بعد .

– لماذا تتبادلننى فيما بينكم كما يتبادل الرجال غابة الجوزة في غرزة شوقي البكرور ؟

كانت زبيدة في نهايات العقد الثالث جميلة خمرية اللون طويلة القوام معتدلة النهدين، ولما يئست من عودتهما إلى ما كانا عليه بعد أن أفاقت من نشوتها قالت له وهى تمسح بيديها على صدرها العاري :

– اعلم جيدًا أنك لست شيئًا يذكر بين الرجال ولكن لأنك لا تستطيع أن ترفض ما يحدث داخل كوخك الحقير فضلناك على غيرك ممن يتمنون التراب الذي نسير عليه ولأنك قادر على إعطائنا ما عجز عنه رجالنا دون أن تستغل ذلك الضعف فينا ، وحتى لو طلبت لن تأخذ إلا ما نريد أن نعطيه لك ، واعلم أيضًا أن أمك يرحمها الغفور الرحيم هي أول من دلتنا على هذا الطريق العفن . وباختصار شديد لست إلا ابن حرام وابن زانية وكلنا في الهوا سوا .

لم يشعر بنفسه إلا وهو يصفعها صفعة قوية أدمت شفتيها التوتيتين ، ثم سرعان ما التحما عاريين وأخذا في تكملة ما كانا قد بدأاه .

## (٦)

يقـول الـناس هـنا إن الـتي تنبت في وسط هذه البيئة من أم تحمل ماضـيًا غير مشرف ومن أب اختار النفاق والانتهازية طريقًا للوصول إلى مبتغاه حـتى ولـو كـلفه ذلك شرفه وعرضه لا يمكن إلا أن تكون ابنتهما صورة ممسوخة لرذائلهما مجتمعة !! .

إلا أن أحـدًا لم يكـن يـتخيّل أن تكون ابنة عليش جاد الله ومنيرة الدكـش عـلى هذا القدر من الاستقامة والاعتدال في السلوك، فكما يعلم أهل القرية جميعًا أن عليش يدرى بما تفعله امرأته في كوخ صانع الفخار، ولكن هيهات له أن يقف أمام جبروتها وخصوصًا أن ميراث الصـباحي الدكـش قـد آل إليها وأصبحت المالكة الوحيدة لكل هذه الـثروة عـلى الرغم من أنه يدير كل شيء، فإن الناس تعلم أيضًا أن ابنتهم سعاد قمة في الورع والطيبة .

وبالطـبع سـعاد كـانت آخر من يصلها أخبار وحكايات أمها التي كـانت تخفى كثيرًا من صفاتها وعاداتها السيئة عندما تكون مع ابنتها الوحيدة. هذه الفتاة التي كانت ثمرة لزيجة بنيت على المصلحة والطمع منذ بدايتها .

وسـعاد الـتي جـاوزت الثامـنة عشرة بقليل ورثت عن أمها جمالها السـاحر وعن أبيها بشرته البيضاء ورغم أنها قد تشبههما شكلاً إلا أنها قد اختلفت عنهما طبعًا وخلقًا فقد كانت هادئة ووديعة. ولذلك لم يتخـلف مجـتمع النسـوة عـن ترديد الأمثال التي تعلل هذه المفارقة، فرب العالمين يخلق من العالم فاسدًا ومن الفاسد عالمًا !!

كانت كنسمة جميلة في نهار قائظ، لا يكاد يسمع لها صوت، فيها نعومة وانسياب الماء من غدير صغير، وعلى الرغم من أن منيرة قد أخرجتها من المدرسة وهي على مشارف الثانوية بحجة أنها "فارت واستوت وخراط البنات خرطها" وأصبح ذهابها إلى المدرسة فيه كثير من الخطورة، على من تتمتع بمثل هذا الجمال في مثل هذه المنطقة المليئة بكثير من المجرمين واللصوص وهاتكي الأعراض، وخصوصًا أن المدرسة الثانوية كانت تبعد عن القرية أكثر من ثلاثة كيلومترات يقطعها الطلاب على أقدامهم في طريق ترابي ضيق غير بعيد عن الهيش المرعب بمحاذاة النهر يتلوى كثعبان وسط مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية والغاب الكثيف على شاطئه المملؤ بكثير من الحيوانات الشرسة ومن قاطعي الطريق .

لذا لم ينس الناس أن يخبروا أبناءهم وبناتهم أن يمشوا جماعات وأن يحترسوا وخصوصًا في ذلك المكان القريب من ساقية "المناصرة" حيث توجد عشة مهجورة يقولون إنها كانت لفاجرة تستقبل فيها طلاب المتعة المحرمة، وإنها أصبحت بعد موتها مسرحًا لحوادث غريبة وغامضة آخرها عندما هجم ملثمان على تهاني ابنة الشربيني المغاوري ذلك الأجير الفقير لدى العمدة سلامة ولم يتركا البنت إلا بعد أن فقدت أغلى ما تملكه، وعندما عادت منكسة الرأس ودموعها تنهمر على وجهها الميت وأخبرت أمها بما جرى لها، أطلقت المرأة صرخة دوت في سماء القرية ولم يجد الشربيني مفرًّا سوى أن يتركها تلقى بنفسها في النهر على مرأى ومشهد منه ومن أمها، ولم يعرف أحد بعد ذلك كنه مَن فعلها ولكنهم يتهامسون في غرفهم المغلقة وفي حقولهم البعيدة عن القرية أنه ربما يكون السبعاوي القاتل الأجير أو أحد أتباعه . لهذا آثرت منيرة السلامة ومنعت ابنتها عن المدرسة .

لم تقتنع سعاد بمبررات أمها في قرار إبعادها عن المدرسة وحاولت

أن تكتشف السر الحقيقي لهذا القرار المفاجئ فتوسلت إليها أن تتركها تكمل دراستها ولكن منيرة كانت عنيدة وصلدة ولا ينفع معها اللين أو معسول القول ولا حتى دموع سعاد التي ظلت تذرف لأيام طويلة .

كان جمال النساء هنا جمالاً طبيعيًا حيث أقصى ما يفعلنه أن تغمس إحداهن عودًا من الكبريت في زجاجة الكحل الذي يحرصن على شرائه من عم يونس الذي يصل إلى القرية مرة كل أول شهر محملاً بكثير من الإشاربات الحريرية وعطر القسيس الذي يفضله الفلاحون لقوة رائحته بالإضافة إلى الصابون أبو ريحة والكحل وبعض قمصان النوم المبهرجة .

ولما كن يجلسن بالساعات في ماكينة الطحين انتظارًا لدورهن في الطحن فقد كانت أخبار القرية كلها تلاك في أفواههن وبالطبع كان لابد من أن يتطرق الحديث عن حسن وجمال سعاد ابنة منيرة وكم من سيدة تمنتها زوجة لابنها لولا سمعة أبويها غير الطيبة .

وكما تخرج قطعان الإوز والبط البكينى صباحًا إلى النهر كان النساء يخرجن مع غبشة الفجر زرافات ووحدانًا إلى "موردة" السعداوية المقامة على شاطئ النهر لغسل أواني العشاء الفائت ومرة ثانية في منتصف النهار. وبالطبع لم يكن الحديث أيضًا في الموردة يخلو من الإشارة إلى حسن وجمال ابنة منيرة الدكش .

أما منيرة فقد كان قلبها يدق بعنف كلما رأت سعاد وقد لفتت انتباه الناس وهى في هذه السن وباتت تخشى عليها من المصير الذي وصلت إليه، وتذكرت كيف أنها فقدت بكارتها وهى في أقل من عمر ابنتها .

ولكن ما بعث الاطمئنان والسكينة في قلبها أن سعاد قليلة الخروج، كثيرة المداومة على الصلاة رغم تعرضها لسخرية أبيها الذي

كان يقول إن النساء لا صلاة لهن، وهو من لم تعرف قدماه يومًا الطريق إلى مسجد، وهو من تجرأ على الشيخ ضاحى إمام وخطيب الجامع الكبير عندما توجه ذات يوم إلى رواد غرزة البكرور ودعاهم إلى صلاة العصر، ولشعور معظمهم بالتقصير فإنهم قد أرخوا الطرف وطأطأوا رؤوسهم إلى الأرض ما عدا عليش الذي سخر من الشيخ ضاحي قائلاً :

- سيبنالكم يا عم الجنة خلينا إحنا في النار!! ثم أمسك "بالماشة" قطعة من الفحم المشتعل ووضعها على رأس حجر الشيشة وهو يقول : بالذمة يا عالم فيه أحسن من كده نار ؟

وبالرغم من أن سعاد انقطعت عن المدرسة منذ فترة ليست بالقليلة إلا أنها دائمة القراءة حيث تجلب لها صديقتها الوحيدة تقريبا ريم الشافعي ابنة محمد الشافعي ناظر المدرسة الابتدائية الكثير من الروايات وخاصة روايات يحيى العميد الذي كان في نهاية الستينيات ملء السمع والبصر. كانت دائمًا ما تقول لريم إنها تحس أنه يكتب عنهم وأنه فلاح مثلهم، وفى المرات القليلة التي كانت تخرج فيها من المنزل كانت تتوجه إلى عم شرقاوى أبو طه صاحب كشك السجاير بجانب موقف الكارو حيث تأتيه بعض الجرائد متأخرة يومًا أو يومين عن موعد صدورها، ولكن ما كان يحز في نفسها أن كثيرًا من صديقاتها قد انفضضن عنها إما تحت تهديد أهاليهن بأن يبتعدن عن ابنة منيرة الدكش أو لأنهن قد تزوجن بعد حصولهن على الثانوية وهذا أقصى ما تحلم به بنت من بنات القرية.

أما ما حول حياتها إلى جحيم لا يطاق فكان في ذلك اليوم الفارق في حياتها حيث كانت السماء تعلن فيه بقوة عن دخول فصل الشتاء، وكانت ذاهبة لملء جرتها من طلمبة الماء العمومية كما تحب أن تفعل ذلك بنفسها بعدما منعت من الذهاب إلى المدرسة فسمعت إحدى

النسـاء وكانت المرأة جالسة في إنتظار دورها في الماء ولم تر سعاد وهى قادمة حين قالت :

- إن مـنيرة الدكـش قد رآها الناس أمس الأول وهى تدخل إلي فـاخورة بـرهان عجـب جابـر كعادتها دائمًا عندما يغلبها الشوق إلى أحضـان حـبيب القـلب . ثـم انخرطت النسوة في ضحكات ماجنة لم يقطعهـا إلا اكتشـافهن سعاد وهى واقفة في ذهول وهلع لا تصدق ما تسمعه .

ومـنذ تـلك الواقعـة أصبحت دائمـة الشـرود والانكسار، وكسا وجهها الصبوح غيمة من الحزن القاتل فشحبت وذبلت وحارت أمها في علـتها، أمـا أبوهـا فلم يعبأ لأن الحشيش والنساء اللاتى يرتمين في أحضانه ليلاً لم يكن ليتركن له فرصة لاكتشاف أن ابنته الوحيدة على وشك أن تضيع منه .

ولم تفـلح محـاولات منيرة في أن تفصح سعاد عن علتها وخصوصًا بعدمـا أحضـرت لهـا طـبيب الوحـدة الصحية ونفحته جنيهين نظرًا لانـتقاله خـارج الوحدة وأقسم لها الطبيب الشاب أن ابنتها لا تعانى من أي مرض عضوي وأن مشكلتها نفسية ويجب على أمها معرفتها .

أمـا سـعاد فكـانت الأسـئلة كسـرطان ينمو داخل دماغها، هاجمتها بقسـوة ولم تـرحم قلـبها الأخضـر الغـض ، ثم صرخت من فراشها وبصوت مشروخ واهن من أثر البكاء وقلة الطعام :

لمـاذا أمـي أنا هكذا؟ فأنا لم أغضب ربى يومًا ولم أخلف له عهدًا!! لمـاذا يخـلقني سـبحانه وسط هذه الأسرة الفاسدة ولى صديقات عرفن طريق الغواية وأهاليهن أناس صالحون، لماذا؟

ثـم انهارت مغشيًّا عليها وعندما أفاقت وجدت رأسها على حجر الخالة أمونة التي تجاوزت الثمانين وقد خضبت رأسها بالحناء .

## (٧)

نـزل أبـو السـعود إلى القرية بعد انقطاع دام عدة أشهر.كان يبدو حزيـنًا مهمومًـا على غير عادته وهو البشوش الدائم الابتسام، ولكنه كان كمن يحمل همًّا ثقيلاً على كتفيه الواهنتين . شكر الرجل كل من دعاه لزيارته، فقد كان قاصدًا فاخورة هريدي الصعيدي .

وبتحديد أكثر جاء قاصدًا الفتى الذي اعتقد ذات يوم أنه سيكون ذا شـأن ولكـن مـا نمـا إلى عـلم الشـيخ وتكشف له وهو هناك على شاطئ النهر خطير .. خطير جدًّا .

دخل أبو السعود إلى الفاخورة، كان باب سورها الخارجي مفتوحًا كعادتـه، كـان يغطي رأسه الأشيب بعباءة من الصوف الخشن وينتعل حـذاء ضـخمًا أغلب الظن أنه من مخلفات الحرب الثانية وقد علقت بـه كميـة كـبيرة مـن الطين حيث كانت الأمطار في تلك الساعة من عصر ذلك اليوم تهطل بغزارة .

وفي الـلحظة الـتي دخـل فيهـا أبـو السـعود الفاخورة باحثًا عن الفـتى، كـان بـرهان أمام قبر أمه حيث اكتشف فجأة أنه لم يزرها منذ شـهر تقريـبًا، وهو الذي أقسم يوم وفاتها أنه لن ينقطع عن قبرها في يـوم مـن الأيـام، وأنـه سـيزرع الورد والريحان الذي كانت تحبه حول قـبرها، وبـالفعل كـان قـد صنع أكثر من مزهرية ووضع فيها شتلات مورقة كان قد أهداها له شيخه أبو السعود. ورغم تساقط المطر بغزارة كـانت الدمـوع تنسـاب من عينيه حارة وساخنة ، كانت تنهمر وكأن المرأة التي ووريت الثرى منذ أكثر من عام قد ماتت الآن .. الآن فقط.

لم يرفع أبو السعود نظره من على صفحة الماء وهـو يجلـس علـى

كومة من القش كان قد انتقاها بنفسه بعد أن قلبها وأخرج منها ما لم يصل إليه ماء المطر الذي توقف من لحظات وأخذت شمس يناير الباهتة تبزغ على استحياء .

لم يرد الشيخ على برهان الذي عاد ففوجئ بشيخه ، فأخذ يده وقبلها، ولكن الرجل لم يعره انتباهًا وظل شاخصًا إلى النهر الذي ينساب من تحت قدميه، كانت زيارة أبو السعود إلى برهان غريبة حيث اعتاد برهان الخروج إلى حيث الشيخ ولكنه في الفترة الأخيرة لم يكن يستمع إليه فقط بل كان يشيح بوجهه عنه وفي كل مرة كان الفتى يجلس صامتًا يهيم الشيخ في ملكوته ثم سرعان ما يفيق ويأمره بأن ينصرف من حيث أتى .

وفى كل مرة كان يذهب فيها برهان إلى شيخه كان يدرك أنه يراه مجردًا ومتسربلاً بذنوبه وآثامه وكان يدرك جيدًا أن الرجل لن يستمع إليه إلا إذا تطهر وخرج من المستنقع الآسن الذي إنحدر إليه طائعًا راغبًا، ولأنه كان يعتقد أيضًا أن ما يمارسه في كوخه مع بعض من نسوة القرية هو بمثابة الانتقام لشرف أمه الذي انتهك في حياتها ولم يرحموها بعد ذلك وهي في قبرها وبين يدي رب العالمين .

وفى اللحظة التي اعتقد برهان فيها أن أبا السعود سينهض راحلاً دون أن يتحدث إليه حيث كان لا يزال ينظر إلى صفحة الماء الذي بدا بلوريًا شفافًا وامتلأت صفحته بطيور النهر البيضاء وهي تتصارع فيما بينها للحصول على طعامها من على صفحته المنسابة في هدوء ودعة، باغته الشيخ قائلاً :

متى سيتطهر قلبك ومتى سيخمد هذا البركان الثائر في أعماقك؟

عاد الرجل إلى ما كان عليه وعلق بصره بطائر صغير ما زال يتعلم الطيران ولا خبرة له بالصيد وقد فشل في الإمساك بسمكة صغيرة فوقعت منه أكثر من مرة حتى اندفع طائر آخر وغرس منقاره

المدبب في صفحة الماء مخرجًا سمكة كبيرة انعكست الشمس على جسدها الفضي وهى تنتفض مغالبة الموت الذي تساق إليه .. بعدها حلق الطائران سويًا وأغلب الظن أنها أمه تعلمه الصيد .

وضع أبو السعود يده المرتعشة المعروقة على رأس الفتى حين بدأ في قراءة آيات متفرقة من القرآن الكريم بصوت واهن مشروخ .

– بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من آتي الله بقلب سليم﴾ ﴿يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ ﴿وننزل من القرءان ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ وأخيرًا قرأ وهو ينظر في عيني الفتى الذي بدا عليه التأثر ﴿أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمت ليس بخارج منها﴾ ثم مسح وجهه وهو يصدق الله العظيم منتظرًا إجابة شافية من هذا الفتى المتأجج حقدًا وكرهًا للقرية ومن فيها .

كان برهان يعلم أنه لن يفلح في الكذب على شيخه فتحرى الصدق قائلاً : لن يخمد البركان فى أعماقي ولن تنطفئ جذوات الحقد بداخلي حتى أذيقهم جميعًا من كأس المذلة والهوان والعار الذي طالما تجرعته ولابد أن يحسوا بالحسرة والألم أضعاف ما نالنى منهم .

ثم أردف قائلاً وقد عجزت دمعة صغيرة كانت قد تحجرت في مقلتيه عن الصمود فسقطت ثم تبعتها أخواتها وقد انفتح أمامها الطريق :

– أتعلم يا سيدي ماذا فعل بي عليش جاد الله صباح هذا اليوم ؟

كان الشيخ ذو اللحية البيضاء ما تزال عيناه تغوصان في قاع النهر وكأنهما تبحثان عن شيء لكنه بكل تأكيد كان ينصت لهذا البائس الذي يكابد من مشاعر الذل والمهانة ما لا يتحمله بشر وحتى بعد أن سرد عليه الفتى ما لاقاه هذا اليوم على يدي عليش جاد الله وأتباعه كانت دموعه ما تزال تنهمر فيما كان الشيخ على حاله منذ جلس .

ولكـن وفـى تلك اللحظة من عصر ذلك اليوم الممطر وفى تلك الـبقعة عـلى شـاطئ الـبحر كـان أبو السعود قد تيقن إلى أي مصير بائس يتجه فتاه والى أي هاوية سحيقة ينزلق .

## (٨)

فـرح عـليش وامرأته باقتراح الخالة أمونة بضرورة عمل زار حتى تشفى سعاد وتبرأ من المرض الغريب الذي داهمها مؤخرًا على حين غفـلة، والـذي لم يستطع الطـبيب فك طلاسمه الغريبة بعد أن حول زهرة يانعة إلى زهرة ذابلة شاحبة توشك على الفناء .

كـانت مـنيرة تؤمـن إيمانًـا قاطعًـا شـأنها شـأن أغلب أهل القرية بالأسـياد مـن عـالم الجـن الخفـي، فقد رسخ في ذهنها أن إحداهن قد عمـلت "عمـلاً عكسـيًّا" لابنتها الجميلة يجعلها تهيم في عوالم أخرى وربما لا تفيق منها أبدًا كما حدث للكثيرات من قبل .

وأن البنت نادية "الهبلة" التي تجوب شوارع البلدة على غير وعي وهدى ، كانت في يوم من الأيام فتاة جميلة رشيدة لكن خطيبها السابق أوغـر صـدر أمـه فعمـلت لها عملاً كتبه "شيحة المخاوى" على جلد قـرموط وأطـلقه في المـاء وأن جميـع المشايخ الذين ذهبوا إليهـم بنادية قالـوا :

– لـن يـزول العمـل وتعود البنت إلى ما كانت عليه إلا إذا مات هذا القرموط أو صاده أحد من الناس .

وقد مرت أكثر من أربع سنوات وما تزال نادية تهيم على وجهها في القـرية تحـادث الكـلاب والقطط وتأكل أي شيء تقع عليه عيناها حتى ولو كان أعوادًا من البرسيم أو خضراوات فاسدة مما يلقيها باعة سـوق الـثلاثاء، بـل تستسـلم دون إدراك لمعاشـرة كـثير من معدومي الضمير ومن فاقدي الإحساس والنخوة .

هكـذا حكـت منيرة لزوجها عندما تبرم ظاهريًا بعدم موافقته على فكـرة إقامـة الزار في منزله مساء الخميس ، أما عليش فكان أكثر منها حرصًا عـلى إقامة الزار ليس من أجل شفاء ابنته فحسب بل لما يجد فيـه مـن مـتعة في ملاحقـة صـاحبات مـنيرة اللاتي لا يجدن مفرًّا من الاستسـلام لشـهوات عـليش وأوراقه النقدية التي ينفق عليهن منها ببذخ منذ استولى تماما على إيراد أملاك الدكش الراحل .

كان البيت في حركة دائبة منذ الصباح الباكر، عشرات من العمال لـدى عـليش يجهزون لهذه الليلة الكبيرة، كثيرات من النسله انهمكن في تـنظيف ونـتف ريـش الدجـاج والإوز والـبط الـذي أوصـت به الشيخة التي ستقيم الزار .

بيـنما انهمـك زكـى أبـو دمـاغ وشوقي البكرور في تجهيز الجلسة الخارجية أمام المنزل بأن فرشا "كليم" جديدًا مزركشًا ثم وضعا عليه المسـاند والـتكايات، وقـام الـبكرور وصبيه سـعد الزعـبله بتنظيف الشيش وإشعال الفحم حتى تحول لونه إلى الأحمر المتوهج، ثم سرعان ما غطى بطبقة من هبلء الرماد الأبيض علامة نضوجه واستوائه .

عشـرات مـن القـدور تـئن بما تحوى من طيور، وعشرات البطون تنـتظر تـلك الولـيمة الـتي لا تـتكرر إلا كل عدة أشهر، كانت منيرة تعشـق هـذا الصـخب والضجيج المحببين إلى نفسها وهى منهمكة في تجهيز الطلبات الخاصة التي أملتها عليها الشيخة "بشرى" من ديك أسـود ذي ريشة بيضله في جناحه الأيمن وثلاث يمامات رماديات اللون كـانت قـد بنت أعشاشها على شجرة الجميز داخل المقابر وقطعة من سـن فيـل وظفـر ذئـب بـرى وبعـض من البخور، هذا بالإضافة إلى الخروفين اللذين طلبتهما بشرى لنفسها واشتراهما عليش وأرسلهما مع أحد العربجية إلى فيلا بشرى في طناح .

ثم نظرت منيرة إلى صحن الدار فوجدت الأباريق التي غرس فيها

حسن ابن أم أحمد صبى الشيخة بشرى الشموع ووضعها على منضدة كبيرة في وسط المنزل تمامًا، وزين القاعة ببعض أوراق الكافور ثم اتجه إلى الدفوف الموضوعة بعناية داخل جراب كبير من القماش وبدأ في تسخينها على نار "المنقد" حتى تكون جاهزة عندما تصل الشيخة مع نسله ورجال الحضرة. ولما اطمأنت منيرة على كل تجهيزات الليلة دخلت غرفتها ومن خلفها سعدية الماشطة وفى يدها قدر لا بأس به من الحلوى الساخنة .

ووسط هذا الضجيج آثرت سعاد أن تلوذ بحجرتها ممنية نفسها بأن ينسوها ويتركوها لشأنها، وعلى الرغم من أنها قد أغلقت غرفتها القريبة من الشارع بالمفتاح إلا أن الباب الكبير لم يحجب عنها تلك الأصوات المزعجة ولا حتى نظرات المتلصصين عليها، الذين بالطبع لم يراعوا حرمة البيت الذي دخلوه .

حيث كان حسن ابن أم أحمد قد التصق بباب سعاد بعد أن وجد لنفسه فتحة صغيرة يتلصص منها. كانت سعاد قد جلست في فراشها تعلوها الكآبة والحزن مما يفعله أبواها وقد انحسر عنها ثوبها فكشف ما بين فخذيها، فازداد التصاق ابن أم أحمد بالباب حتى أفاق على صفعة قوية هوت على قفاه وهو في ذروة انتشائه فصرخ ألمًا ونظر إلى من فعلها فإذا بها الشيخة بشرى وقد تفلت عليه بعد أن قالت له :

– حتى أنت يا خيال المآتة لك نفس تبص على النسوان .

كان حسن نحيفًا ممصوصًا ذا عينين غائرتين ورأس صغير كان قد لفه بشال أخضر فبدا فعلاً كخيال المآتة الذي يضعه الفلاحون على رؤوس حقولهم لإخافة العصافير. زام ابن أم أحمد بعد أن ضحكت الكوديات من نسله الفرقة عندما سمعوها تقول له :

"طول عمرك هتفضل نجس زي بقيت الفاميليا" .

أدركت سعاد التي سمعت ما يدور خلف بابها كم هو هش هذا

الـباب ! وأدركـت أيـضً أن الستر عن عيون الغربه صعب المنال في هذا البيت حتى ولو كانت في فراشها .

أمـا عليش فقـد انشغـل بضيوفـه الذيـن جلسـوا في شبـه حلقـة يدخـنون الحشـيش وقـد تعلقت عيونهـم بكل امرأة تدخل إلى المنزل لحضـور الزار، ومن ثم تبدأ وصلة من تعليقاتهم الفجة على جسدها وما يتمناه كل منهم منها .

تدافعـت النسـاء إلى وسـط الدار فاهتزت أردافهن الثقيلة وتمايل الـرجال الذيـن تصاعد دخان الحشيش إلى جماجمهم فتمايلوا مع إيقاع الدفوف وصوت الكودية واختلط الحابل بالنابل .

وفى تلك اللحظة المتقدة وبعد أن وصل الغناء إلى ذروته خرجت مـنيرة الدكـش وقـد ارتدت رداء طويلاً فضفاضًا من الستان الأبيض وعـلى رأسها غلالة من الشيفون الوردي فبدت كعروس يوم جلوتها، كـانت جميلة رغم تجاوزها الأربعين بقليل، علت الأصوات وتدافعت النساء في حركات هستيرية، وكانت فرصة التصق ابن أم أحمد بمؤخرة شلبية العايقة .

فـتحت مـنيرة حجرة إبنتها، جرتها جرا إلى وسط البيت، أصوات الدفوف تكاد تصم الأذان، انتفضت بشرى كمن مسها جان، وصاحت بأسماء غريـبة المفـروض أنهـا لـبعض مـن الجـن الأحمر، ثم أمسكت الـيمامة الأولى وذبحـتها عـلى رأس سـعاد الـتي خـرت فاقدة الوعي، فدلـف أبوهـا وحمـلها إلى غرفـتها وسـط هذا الصراخ والإنشاد غير المفهـوم ومـن ثـم تبعـتها الخالـة أمونـة وقـد بللت فوطة بيضاء بالماء المـذاب فيه الريحان، وبدأت في مسح جبين سعاد ووجها الذي مال إلى الأحمـر القـاني، أما منيرة فكانت قد بدأت تترنح وهى تتمايل وتدور حـول المنضـدة الصـغيرة الـتي وضعت عليها الأباريق والشموع، ثم سرعان ما خرت مغشيًا عليها هي الأخرى .

فحملتها سواعد سمراء فتية من رجال الشيخة بشرى وقد سال لعابهم شبقًا إذ غاصت أيديهم الخشنة في اللحم البض الطري، ومن ثم أدرك عليش ورفاقه أنها اللحظة المناسبة فدخلوا إلى وسط البيت الذي كاد ينفجر بمن فيه من الأجساد فاختلطت حبات العرق الممزوجة بعطور شعبية نفاذة وعبق البخور، فالتصق زكى أبو دماغ بسندس البيومى فاتنة القرية ولم يتبق للبكرور إلا زوبة امرأة برعي أبو شفة بعد أن استأثر عليش بزينب زوجة محمد أفندي كاتب الصحة التي كان يتربص لها منذ دخلت البيت لحضور الزار .

هاجت الكوديات وعلت الأصوات وخصوصا بعد أن نفح عليش الشيخة بشرى بضعة أوراق نقدية كبيرة. فازدادت حرارة الإيقاع وتساقطت النسلة الواحدة تلو الأخرى . وبينما هم كذلك أفاقت سعاد لتجد الخالة أمونة تمسح عن وجهها الملائكي آثار دماء اليمامة فارتمت في أحضان الخالة وانخرطت في البكاء. أما حسن ابن أم أحمد ورمضان البرنس وجمعة الخولي الذين حملوا منيرة إلى مخدعها فقد عروها من ملابسها الشفافة وتناوبوا في مضاجعتها بينما هي لا تشعر بشيء وقد حلقت في دنيا أخرى، أو على الأقل قد ادعت ذلك .

## (٩)

كـان لكـلمات الخالـة أمونة أثر السحر في تهدئة سعاد وإشعارها بـنوع مـن الأمان ولو للحظات فاستراحت سعاد كثيرًا عندما أفضت إليهـا بما سمعته من النسله عند حنفية الماء العمومية، وكم كانت أمونة حكـيمة وعاقـلة، فعـرفت كيـف تـنفى كل هذا الكلام وأرجعته إلي الغيرة من جمال وثراء أمها، وأن منيرة الدكش بنت أصل وحسب ولا يمكـن أن تـرتكب مثل هذه الفواحش، وكم صادف هذا الكلام هوى في نفـس سـعاد، فـبدا رحيـق الحيـاة يعـود إليها تدريجيًّا فغدا وجهها صبوحًا نيرًا وعرفت البسمة طريقها إلي هذا الوجه الجميل الذي لا يملك المرء عند رؤيته إلا أن يتمتم : سبحان الوهاب العظيم .

ومـع ذلـك ظـلت كـلمات نسله الحنفية واسم هذا الفتى الذي لا تهـدأ أمهـا إلا وهـى في أحضـانه هاجسًا مؤرقًا يشل تفكيرها ويقتل لحظـات السـعادة التي تحسها وهى تقرأ لكاتبها المفضل يحيى العميد، وسـعاد التي كانت على درجة عالية من الوعي والإدراك كانت تتمنى رؤيـة بـرهان عجب جابر حتى تكشف بنفسها حقيقة هذا الكابوس المخزي الذي تحياه .

وإن كـانت الأيـام تـزيد مـن صـدق الشـائعات حول منيرة وهذا الفـتى في عقـل سعاد إلا أن قلبها لم يستوعب أن تنحدر أمها إلى هذه الهوة السحيقة وأن ترتكب مثل هذا الإثم .

حـلمت سعاد بفارس نبيل ينتشلها من هذا البيت الذي أصبحت تكـره، بـل وينتشلها من هذه القرية التي لم تعد كما كانت، وكثيرًا ما

تمنت أن تقابل الشيخ أبو السعود الذي سمعت عنه الكثير بل ورأته أكثر من مرة، ولكنها في كل مرة كانت تهم بمحادثته والإفضاء إليه بما يعتمل في نفسها بل والبكاء بين يديه كانت تتهيب الاقتراب من الشيخ الوقور .

وفي المرة الوحيدة التي استجمعت شجاعتها وهمت بمحادثة الرجل حيث كان يمشي وحيدًا على غير عادته حيث لا يتركه الناس هكذا دون أن يلتفوا حوله التماسًا لبركاته وعلمه وسؤاله عما استعصى عليهم في شؤون دينهم ودنياهم .

ساعتها جرت إليه وقبلت يده ولكن الصدف السيئة ساقت أباها الذي كان قادمًا من الإسطبل فنزل من "كارتته" وأمر ابنته بالدخول إلى البيت، بعدها نهر عليش الشيخ وطرده ولم يملك الرجل إلا أن يدعو له بالهداية والصلاح .

ثم صب جام غضبه على ابنته التي شيعت الشيخ بدموعها قائلاً :

" دا راجل مرووش وسايق الهبل على الشيطنة .. إنتي صغيرة متوعيش عليه، أبو السعود بيه دا كان أكبر واحد حشاش وبتاع نسوان في بلدنا كلها " .

وسعاد بعد ذاك لم تعد تندم على أنها أخرجت عنوة من المدرسة وأغلب الظن أن حرمانها هذا قد صادف هوى في نفسها، لما كانت تعانيه من نظرات زميلاتها التي لا ترحم، ومن تلميحات بعض المدرسات وخصوصًا إذا كانت المُدرسة جديدة على المَدرسة فتتطوع زميلاتها بسرد حكاية منيرة لها من البداية إلى النهاية .

وكم آلمها قول مرعى نصر الله مدرس اللغة العربية عندما قال لها ذات يوم :

"يا سعاد أنت مثل الزهرة الجميلة وقد نبتت في الوحل" مع أنه هو نفسه من شجعها على القراءة وأهداها أول رواية وكانت رواية

ضخمة لإحسان عبد القدوس، وكأن هذا الرجل كان يقصد إعطاءها تلك الرواية بالذات حيث عاشت بطلتها في وسط بيت سيئ السمعة وطاردتها تلك السمعة إلي كل مكان ذهبت إليه ولم تجد خلاصها إلا على يد رجل أنقذها من تلك الأسرة الماجنة، صحيح أن سعاد قد نبض قلبها للمرة الأولى عندما تبادلت النظرات مع محسن ابن المعلم سالم النجار الذي يدرس الهندسة في القاهرة ويأتي إلى القرية في الإجازة ليساعد والده في عمل الشبابيك والأبواب البسيطة وأحيانا الطبالي وكراسي الحمام والقباقيب الخشبية.

كانت نظرته مختلفة، طاهرة ونقية، لم تكن كنظراتهم التي تحس بها كسياط تلهب ظهرها ودبابيس تنغرس في جسدها كلما ذهبت إلى البقال أو حتى إلى السوق لشراء الخضار، وكم كانت سعادتها عندما حملت إليها البنت نوسة ابنة عزيزة التي تخدم أمها رسالة رقيقة من محسن يكشف فيها عن حبه وعن أمنيته أن يجمعهما منزل واحد وأنه لا يتصور الدنيا من دونها، بل وزاد من فرحها أنه يدرس باستماتة حتى يصبح جديرًا بها ولا يرفضه أبوها وأمها المتعاليان على الناس لفرط ثرائهما.

ومع أنها قرأت رسالته عشرات المرات إلا أنها في كل مرة كانت كمن تقرؤها للمرة الأولى فتحمر وجنتاها وترتجف أطرافها وتبدو حبات العرق على وجهها الملائكي كاللؤلؤ المنثور على وجه القمر في ليلة تمامه، وبالرغم من إلحاح البنت نوسة عليها في أن سي محسن ينتظر الرد على أحر من الجمر وأنه وعدها بأن يعطيها هدية جميلة من هدايا مصر إذا جاءت به.

وعلى الرغم من أن سعاد تمنته زوجًا بكل حواسها إلا أنها لم تستطع أن ترد ولا حتى بكلمة تثلج قلب هذا الفتى الطيب الذي كان يراها أميرة جميلة ولكنها أسيرة وراء سياج من السمعة السيئة بناه

والداها في سنوات طويلة حتى حجب كل جمال خلفه .

كـان محسـن يعـلـم في قرارة نفسه أن أباه المعلم سالم ذلك الرجل المشـهود له بالصلاح والتقوى لن يوافق على وضع يده في يد عليش مهمـا كـان السـبب، ولو حدث ما يخشاه لن يستطيع أن يعصى لأبيه أمرًا، ذلك أن المعلم سالم أصر على تعليم ابنه في القاهرة وفى أحسن كـلية حـتى لـو اقتضى ذلك أن يعمل ليل نهار، فلم يكن يتوانى في قـبول أي عمـل مهمـا كـان شـاقا أو متعـبًا، فـتارة تجـده في قاع ساقية مهجـورة يصـلح ترسًـا قد انكسر، وتارة تجده فوق سطح أحد المنازل يصـنع بـنيات لـلحمام، وتـارة أخرى يصلح الطبالي وكراسي الحمام القديمة لدى إحدى نساء القرية، وكم كان الرجل يتمنى بأن يرى ابنه مهندسًـا في السـد العـالي أو في أحد المصانع الكبيرة في المنصورة أو المحلة .

تصـارعت الأفكـار في رأس سـعاد مـا بـين الفـتى الوحيـد الذي أحبـته وأرادهـا زوجـه شـريفة وأمًّا لأبنائه وما بين نيران الشك التي أحرقت كل لحظات الصفاء والسعادة في قلبها .

حـتى ذلـك اليوم الذي قررت فيه أن تخرج إلى الشيخ أبو السعود حيث يقيم عند فم البحر وتسر إليه بما يموج في أعماقها من عواصف عله يريحها من هذا العذاب الذي لا ينتهي ..

## (١٠)

عندما مد شوقي البكرور غابة الجوزة إلي عليش جاد الله مصحوبة بجملته المعتادة "مساء الخير" بعد أن وضع على رأس الحجر قطعة كبيرة من الحشيش كان عليش قد قطعها بعناية ودسها في يده، أخذ البكرور يحدق في الرجل الذي كان إلى عهد قريب مجرد صبي ينظف تحت خيول الدكش فوجد الهيئة قد تبدلت والحال غير الحال.

ولكن عليش هذا المساء كان على غير عادته فهو واجم صامت يلقم غابة الجوزة ويسحب بعنف فيخرج الدخان الأزرق الكثيف من منخاره وهو على حاله منذ جلس لا يرد على أحد ولا يبتسم لنكتة ولا حتى يتحمس لسماع حكاية من أحدهم عن إحداهن.

وبالطبع جميع من في الجلسة كانوا يعرفون سبب ذلك الشرود، فلقد شاهدوا ما حدث صباح اليوم عندما قام عليش بدفع صبيانه من العربجية على برهان عجب جابر وهو يفترش كعادته جراره وقلله صباح كل ثلاثاء حيث السوق الكبير فقاموا بتكسير كل البضاعة وتركوا الفتى النحيل لعليش بنفسه الذي قام بضربه ضربًا مبرحًا حتى سال دمه ومع ذلك لم يتقدم أحد لنجدته وينقذه من براثن هذا الوحش.

كان عليش يضرب بحقد وشراسة لم يعهدوها فيه على الرغم من غلظته وشدته، ثم جر الفتى النحيل إلى شجرة "جازورين" خشنة اللحاء وقيده إليها والدماء تنساب من ظهره العاري والعجيب أن الفتى الذي جلده عليش بكرباج الخيول لم يئن ولم يصدر عنه صوت،

والعجيب أيضًا أن أحدًا من الناس لم يتقدم لنجدته غير أن صبيان عليش هم الذين طلبوا منه أن يتوقف قبل أن يموت الفتى بين يديه .

ولكن يبدو أن عليش لم يعد قادرًا على تحمل نظرات السخرية من صبيانه، ولم يعد قادرًا على الاستمرار في خطته الشيطانية بتركه منيرة تفعل ما تشاء من أجل اللحظة التي يستولى فيها على كل شيء ومن ثم يلقى بها إلى قارعة الطريق، وكما يقولون فاض الكيل فتحول الرجل المترقب للحظة انقضاضه على مال غريمته بين عشية وضحاها إلى وحش باطش غاشم فكان أول ضحاياه صانع الفخار، أما من شهد الواقعة فقد تهامسوا سرًّا أن من لا يرحم الآخرين هم تلك الفئة التي تتنعم بعد سنوات من الحرمان والشقاء .

وكل أهل القرية بالطبع لم يصدقوا حكاية أن برهان قد باع لعليش جرارًا مكسورة وأنه قد غشه في مبلغ كبير من المال، وبالطبع ظل السبب الحقيقي داخل صدورهم، وفى تجمعاتهم الخاصة خوفًا من بطش عليش وصبيانه الذين عاثوا في القرية فسادًا دون خوف من رقيب أو حسيب حتى العمدة سلامة اتقى شرهم وآثر السلامة خوفًا على ماشيته أن تسم أو حتى على أجرانه أن تحرق، وهكذا تيقن برهان أن عليش الذي ضربه هذه المرة بالتأكيد سيقتله لا محالة في المرة القادمة، وفى تلك اللحظة التي حمل فيها برهان عجب جابر من وسط السوق والدماء تسيل من أنفه وجبهته وظهره المجلود وفى حالة كان أقرب إلى الموت فيها من الحياة، كانوا قد رأوا في عينيه اللتين تورمتا من شدة الضرب نظرة مرعبة تدل على أن هذا الفتى النحيل قد عقد العزم على فعل لن تنساه القرية لسنوات طويلة .

أفاق عليش من شروده على صوت البكرور يحذره من انتقام صانع الفخار فشقت ضحكته سماء الغرزة وقال :

– في المرة القادمة سيكون عقاب ابن الحرام هذا قتله .

ثم نظر إلى البكرور نظرة تعال واحتقار قائلاً :

- يبدو يا شوقي الكلب أنك نسيت من أنـا ! فأنا قبـل أن أكـون جـوز الســت كما تتهامسون من خلفي معتقدين أن كلامكم المعجون بالكـراهية والحقد على ما وصلت إليه - لن يصلني، فأنا عليش ابن البسيونى جاد الله أكبر مقاول في المديرية، لقد كان أبي يضع الفلوس في شـكاير الأسـمنت في وقـت كنـتم لا تجـدون فيـه ما يستر أبدانكم النجسـة أو مـا يقـي بطونكـم الخاويـة شـر الجوع الذي اعتدتم عليه واعتاد عليكم، ثم إن هذا الحقير ابن الزانية ستكون نهايته على يدي.

ثـم رفـس غابـة الجـوزة بحذائه البنص الذي يبدو كمرآة من شدة لمعانـه واعتـناء عطـوه الجزمجى به. حاولوا أن يعيدوه إلى جلستهم مرة ثانيـة ولكـن مـزاجه قد تعكر على حد قوله وعندما خافوا أن تضيع ليلـتهم هـباء قـذف إليهـم بمـا يحملـه في جيب الصديرى الحرير من حشيش وأفيون .

لـلمرة الأولى يا عليش لا تعرف أين تذهب في هذه القرية الشؤم ولـلمرة الأولى يضـيق صـدرك إلى هـذه الدرجة ! ثم سأل نفسه هل صـحيح يـا عـليش تغـار عـليها؟ ألم تكـن تعرف أن ديلها نجس منذ سـنوات؟ ألم تـرها بعيـنيك وهى تتأوه تحت الواد جودة الكلاف أكثر مـن مـرة في زريبة الخيول؟ هل كنت تعتقد أنها ستتوب بعد زواجها؟ ألم تخـبرك ذات يـوم وأنت معتليها في المرات القليلة التي سمحت فيها لك بذلك أنك لا تملأ عينيها كرجل ؟

ولكن ما العمل الآن وقد أصبحت سمعتك لبانة في أفواه الكلاب ولاد الكلاب ؟

راوده خاطـر بـأن يضع لها السم في الطعام وتغور كما غار أبواها مـن قـبل. ولكنه خشي على ابنته الوحيدة وإن كان لم يكن يتمنى أن يرزق أبناء من هذه الملعونة الفاجرة، ألم تشعره في كثير من الأحيان أن

البـنت ليست من صلبه، ولكنه أدرك بمشاعره تجاهها أنها ابنته فكثير مـن ملامحهـا تشبهه إلى درجة كبيرة، ثم إن هذه الوحمة التي تشبه حبة البطاطس أسفل قدمها اليسرى أكدت له أنها ابنته ومـن لحمـه ودمـه فهو يحمل مثل هذه الوحمة في مثل هذا المكان .

ولكـن أيـن ستذهب يا عليش في هذه الليلة السوداء؟ هل تخشى حقًّـا أن يمـوت ابـن الزانية وتروح في حديد؟ أم هل تخشى أن تذهب إلى الـبيت ولا تجـد منيرة في فراشها في مثل هذه الساعة المتأخرة؟ هل تذهب إلى الفاخورة وتذبحهم سويًّا؟ أم ماذا تفعل؟

كـان عـليش على وشك الجنون عندما حملته قدماه التي غاصت في تجمع مائي بارد أمام منزل نعيمه زوجة الدفراوى الخفير .

نقـر الشباك نقرة معلومة لديها، فتحته بحذر وريبة وهى تعدل من شعرها من أثر النوم قائلة بصوت مملوء بالغنج والدلال :

- يـا ألـف خطوة عزيزة يا سى عليش، دا إحنا زارنا النبي الليلة دي ، إنـت فـين يـا سيد الرجالة من زمان، واللا نعيمة معدتش تليق بالمقام ؟

جاء صوته مقتضبًا عنيفًا :

- جوزك فين يا بت ؟

- المخفي راح المركز، عنده بيات هناك .

ثـم اسـتدارت لتفـتح لعـليش الباب الخشبي القديم الذي أصدر صـريرًا فاضحًا؟ وعندما فتح، كان عليش قد رمى نفسه داخل الحجرة الـتي تنبعث منها رائحة نوم الصغار المشبعة بالصنانة وبإسهال صغير يعانى آلامًا في معدته .

وبالـرغم من أن الأمطار قد جعلت فاخورة هريدى وكأنها جزيرة منعزلة عن القرية إلا أن منيرة الدكش كانت ذهبت إليها تلك الليلة لتضـمد جـراح الفـتى وتطيـب خاطره وتقسم برأس الصباحي أنها

ستنتقم مـن ذلـك الـبغل زوجهـا وأنهـا ستلقنه درسًا هو الآخر لن ينسـاه .

ولكـن بـرهان الـذي استسـلم عاريًا ليديها وهى تضع له بعض المـراهم عـلى ظهـره المجـلود كان قد قرر الانتقام منه ومنها بأسرع مما يتوقعان !! .

## (١١)

كـانت ليـلة شديدة البرودة عندما اصطدم جسدان في ذلك الظلام الدامـس عـلى الكوبـري الخشبي الذي يربط القرية بالضفة الأخرى مـن النهر وكان قد تآكل في كثير من أجزائه، وقد بدا النهر من تحت أقدامهمـا مخيفًـا مرعـبًا وخصوصًـا عـند انكسـار أمواجـه بعـوارض الكوبري الخشبية الثقيلة .

وقفا للحظة، تراجع أحدهما قليلاً ليتبين هذا الشبح الذي اصطدم بـه، فـأحس بيده باردة كالثلج، كان برهان عجب جابر وقد لف رأسه بشال من القطن الأحمر أما الآخر فكان محسن ابن سالم النجار .

لم يسـتطع أحدهمـا سـؤال الآخـر مـا الذي دفع به إلى ترك دفء الفـراش والخـروج في مثل هذه الساعة في هذا الجو القارس وفى هذا المكان الموحش الذي يتحاشاه الناس من بعد صلاة العشاء وخصوصًا في هذه الليالي المظلمة .

كانت منطقة الكوبري مسرحًا لأحداث حكاية موسى إمبابى ذلك العجـوز الجـالس دائمًا وأبدًا ليبيع الليمون بجانب مدخل الكوبري، يقـول الناس إن إمبابى الذي لا يعرفون عمره بالتحديد قد شهد بناء هـذا الكوبري حين كان صبيًا لم يتجاوز العاشرة، وأن ذلك الكوبري العـتيق شـهد حادثـة ارتجت لها القرية، بل اهتزت لها المديرية لشهور طويـلة، ويـزيد الـناس في الحكايـة ويقولـون أن مـلفًا كاملاً لا يزال محفوظًـا في أرشيف وزارة الداخلية وبه كل تفاصيل الحكاية وبه أيضًا اسم موسى إمبابى بائع الليمون .

والحادثة التي تحولت شيئًا فشيئًا إلى ما يشبه الأسطورة بما زاد الناس فيها واختلفت من راو إلى آخر، تحكى أنه كان يسكن في البر الآخر من النهر مجموعة من الفلاحين وكانوا يجدون صعوبة ومشقة في التنقل إلى الضفة الأخرى للنهر حيث القرية والسوق وحيث المسجد الوحيد في تلك المنطقة في هذا الزمن القديم.

ولم يجد عمدة القرية يرحمه الله سوى تجهيز قارب كبير وأمر "علي السعدواي" ببنائه. وعلي السعدواي هذا كما عرفنا فيما بعد هو والد سالم النجار وجدّ محسن الذي يقف على نفس الكوبري ولكن بعد أكثر من ستين عامًا على بنائه.

ولما أتم علي السعدواي بناء القارب قام بشد حبل غليظ وثبته جيدًا على ضفتي النهر ليسهل له الإمساك به عندما يعبر بالقارب في هذه المنطقة الشديدة الأمواج حتى لا يجرف التيار القارب بمن فيه، وهكذا وجد الناس من ينقلهم إلى الضفة الأخرى مقابل أجر زهيد يذهب معظمه بالطبع إلى جيب العمدة صاحب القارب، ويقولون إن السعدواي كان فتى وسيمًا لم يتجاوز العشرين عامًا، كما يقولون أيضًا إن قلبه قد تعلق بمريم ابنة مجاهد الشرقاوى أحد الأعيان الذي كان يسكن في قصر كبير في الضفة الأخرى من النيل بعيدًا عن سكن الأهالي وعن القرية كلها، وكان مجاهد هذا غليظا حاد الطباع، لذا كان يخشاه الجميع ويبتعدون عن طريقه.

ومرت الأيام وتزايد الناس في الضفة الأخرى من النهر فطلب مجاهد من الحكومة بناء كوبري ليعبروا عليه حيث لم يعد القارب قادرًا على نقل كل هذه الأعداد في وقت واحد، وهكذا تم بناء الكوبري بمساعدة كبيرة من رجال القرية كان في مقدمتهم علي السعدواي النجار وكانت قد توطدت علاقته بمريم وبدآ يتحدثان عن الزواج والمستقبل والبيت الذي سيجمع شملهما، ولكن كيف يقبل مجاهد

الشـرقاوي الجبار أن يزوج ابنته لنجار صغير لا حسب ولا نسب له هكذا كان يقول الناس .

وفعـلها السـعدواي وتـزوجها سرًّا في المنصورة وهى في زيارة إلى قـريب لأمهـا كـان قد ترك القرية منذ سنوات طويلة يعمل في وزارة المعارف ودخل بها عنده، ثم تعددت لقاءاتهما بعد ذلك في ظل ساقية أو بجـانب الكوبـري ليـلاً وهكـذا سـرقا مـن الـزمن أحلى لحظات عمـرهما الـتي أثمـرت جنينًا تحـرك في أحشـائها معلـنًا بقوة ضرورة دخولـــه إلى الحيـاة، ولمـا أفـاق والدهـا مـن هول صدمة اكتشافه أنها حـامل، أرسلها إلى أخوالها في الصعيد فوضعت هناك، ثم عادت وهى تظـن أن أباهـا سيصـفح عـنها، ولم تكـن تعلم انه أمهلها حتى يعود رجالـه مـن رحـلة طويـلة كـان قـد أرسـلهم فيها إلى أقصى الجنوب لتصفية حساب قديم بينه وبين أحد عتاة الإجرام في بهجورة .

اسـتقبل مجـاهد ابنـته وهى تحمل الطفل الرضيع الذي أسمته سالم، قبلها ما بين عينيها، ثم أشار إلى رجاله فحملوها حملاً إلى خارج المنزل وأتـوا بها إلى وسط الكوبري الجديد آنذاك فوجدت علي السعدواى مقيدًا إلى إحدى دعاماته العلوية وقد عري إلا ما يستر عورته وقد بدا عليه آثار التعذيب الشديد .

صـلبوها بجانـبه انـتظارًا لأوامـر مجـاهد، كان الخلق قد تجمعوا ولم يجـرؤ أحد منهم على فتح فمه وإلا كان سيلاقى مصيرًا مجهولاً، كانت لحظة عصيبة شخصت لها الأبصار . .

كـان إمـبابى كمـا يقولـون قريبًا إلى درجة أنه شم رائحة الرجال الذين اتشحوا بالسواد وكانوا ملثمين فلم ير الناس إلا عيونهم التي تتقد حقدًا وكرهًا، كانوا من رجال الليل الذين يسكنون الهيش بعيدًا عـن القـرية بالقـرب مـن المـناطق المهجورة على شاطى النهر عندما يـتوغل في طـريقه إلى مصبه فى البحر المتوسط، توجه مجاهد إلى علي

السعدواي ثم أخرج من طيات ملابسه سكينًا طويلة لمع نصلها عندما رأتها الشمس فانعكست صورة الفتى وهو مقيد من الخلف مكمم الفم ولكن من فعل به ذلك لم يستطع حبس دموعه التي سالت بغزارة، أمسك مجاهد بالرأس من منبت الشعر، وفي تلك اللحظة الدامية كانت عيناه قد أرسلتا نظرتها الأخيرة إلى عينيها، فصاحت مريم من مكان سحيق في أعمق أعماقها، حز الرجل الرأس بينما أصدر الجسد رجفته الأخيرة، ثم انتفض بعد ذلك داخلاً في سكونه الأبدي، فاندفع الدم دافئًا حارًا وكأنه لا يزال يعتقد أنه يجري في عروق صاحبه .

أما مريم التي كانت أقرب إلى الموتى منها إلى الأحياء بعدما شاهدت زوجها وهو يذبح أمامها، فقد كان الموت هو البلسم الشافي مما تشعر به وكان الموت هو طريقها السريع للوصول إلي الحبيب الذي فقدت وإلى رب الأسرة الصغيرة التي حلمت .

لم تفلح صرخة أمها التي دوت وسط هذا الصمت القبري على المكان أن تثني من عزم مجاهد على استكمال ما نواه، ولكنها استطاعت أن تفتت من عزم الرجل القاسي، فأشار إلى مساعده المرسي عمبر الذي كان مشهورًا في تلك الأيام بقسوته وجبروته، كان منزوع الرحمة منزوع الذراع حتى الكتف، كان المرسي جبارًا ويقولون إنه هو من قطع ذراعه الأيسر بنفسه عندما تمكنت منه الغرغرينا بعد إصابته للمرة الأولى على يد إبراهيم طلبة الصول الوحيد الذي رأى المرسي عن قرب والوحيد الذي استطاع أن يصيبه تلك الإصابة البالغة .

وإن كان المرسي لم يرحم الصول إبراهيم فيما بعد عندما اقتحم منزله بالقرب من طنطا واغتصب امرأته ثم ذبحها مع اثنين من صغاره تصادف وجودهما في المنزل في تلك الساعة، فإنه لم يكن يتورع

عـن فعـل أي شـيء مقـابل ذراعه المبتور الذي كلما رآه تعطش أكثر لسفك الدماء .

أمسـك المرسى برأس مريم ثم نظر في عيون سيده لعله يعثر فيها عـلى بادرة تردد ولكن مجاهد أشار إليه بالموافقة، وبسرعة البرق، وبيد آثمـة خـبيرة تعـرف مـاذا تفعـل قطع السكين الأعمى شرايين وأوردة الرقبة فاستسلم الجسد المذبوح إلى مصيره في هدوء واستكانة وسال دم مريم بيسر وسلاسة ليختلط بدم علي متحدِّين قاتليهما .

لم يمـلك الأهالي بعد ذلك إلا دفن الجسدين معًا بجانب الكوبري بعدمـا سمح لهم مجاهد بذلك بعد رحيل رجاله ذوي الملابس السوداء. ويحكـون أيضًـا أن مجـاهد قد اعتزل الناس بعد هذا الحادث المريع ثم سـرعان مـا لقي حتفه بعد ذلك على يدي المرسى عمبر نفسه بعد أن كـري عـليه مـن قـبل عمدة الصوالحة انتقامًا لثأر قديم بينهما. أما أم مـريم فقـد احتضـنت الرضيع الذي لم يكن يتجاوز عمره عشرة أيام ورحـلت بـه إلى الجانب الآخر من القرية حيث ربى وسط أعمام أمه المذبوحـة، وإن كـان كثير من الناس الذين نقلوا الحكاية لم يسمعوها مـن إمبابى نفسه آخر من رآها وعاصرها ممن بقوا على قيد الحياة فإن الـرجل آثـر دائمًـا عدم الإجابة على أسئلة الفضوليين ولكنه أبدًا لم ينف وقوعها .

ولكـنهم قـد تأكدوا من صدق الحكاية عندما شوهد إمبابى عصر أحـد الأيـام وقد اتجه إلى الكافورة العملاقة بجانب الكوبري وقد رفع يديـه إلى السـماء وشـرع في قـراءة الفاتحة، ساعتها أيقنوا حقًّا أن قبر الحبيبن في هذه البقعة بجانب النهر .

ولكـن مـا الـذى أخـرج هذيـن الفتيين في هذه الساعة من الليل وخصوصًـا أن الـناس هـنا قـد توارثـوا حكايـة مريم وعلي اللذين يخـرجان في أواخـر الشـهر العـربي ليجلسـا سـويًّا عـلى الكوبـري

يتناجيان حتى آذان الفجر، وكما يروي الناس أنهما لا يؤذيان أحدًا ومع ذلك يبقى هذا الكوبري مسكونًا ومريبًا .

هذا التساؤل تبادر إلى ذهن كل منهما وإن كان برهان يعلم أن محسن جاء في مثل تلك الساعة لأنه عاشق ومتيم بسعاد ابنة منيرة وبما أن منزلها يرى من تلك البقعة جيدًا فقد حام العاشق كما حام جده منذ أكثر من ستين عامًا حول بيت من يحب .

أما محسن فلم يكن يعلم أن ذلك الفتى النحيف الذي يعمل صانعًا للفخار يتكاثر في قلبه الحقد والرغبة في الانتقام كما تتكاثر البكتريا السامة وأنه سيكون سببًا في تعاسته وشقائه هو شخصيًّا لسنوات طويلة بعد ذلك .

## (١٢)

كانت الشمس تعانى من تلك السحب الداكنة التي تحاربها محاولة حجب أشعتها الدافئة أن تصل إلى الأرض المبتلة بعد ليلة عاصفة، كان البرد القارس ينخر في عظام برهان عجب جابر وهو وسط "معجنة" الطين يقلب بقدميه المعيزيتين فيها .

كان يطرب لذلك الصوت المميز الناتج عن اختراق قدميه لكتل الطين المختمر، كان يرش الماء بيده المعروقة التي كانت تخرجه من دلو بلاستيكي قديم فبدا كصانع للحلوى وهو يرش السكر الناعم على الكعك مساء ليلة العيد .

دس يده الطويلة الأصابع في "معجنة" الطين مخرجًا قطعة كبيرة منه، كانت مفعمة بالحياة، روى ظمأها بقليل من الماء الذي كاد أن يتجمد من شدة البرودة .

وضعها على منضدة العمل، ثم اقتطع منها قطعة أصغر وضعها على الدولاب المتحرك، أداره بقدمه اليمنى بهدوء وببطء، كان خبيرًا في حرفته، ثم سرعان ما زاد السرعة، تذكر أنه يجب عليه مضاعفة العمل وخصوصًا بعد أن حطم رجال عليش كل القلل والبلاليص التي صنعها هذا الأسبوع، صحيح أن منيرة عوضته عن ثمنها ولكنه ملتزم أمام كثير من طلبات زبائنه الدائمين الذين تعودوا الالتزام منه في مواعيد تسليم بضاعتة .

كان لا يزال متأثرا بالضرب المبرح الذي لقيه على يد عليش ومن ساعتها لم يطق أن يرتدى شيئًا يستر ظهره المجلود ولم تفلح معه حتى

خـلطة الخالـة أمونـة الـتي صـنعتها لـه مـن بعـض الأعشاب البرية الممـزوجة بالـلبن الـرايب ومـنقوع البصـل المغلي في أن تطفئ تلك النيران المتأججة في ظهره المسلوخ .

وبـدون أن يعـي، أخذت قطعة الطين تتشكل ويبرز لها ملامح، ثم سـرعان مـا تحولـت هـذه الملامـح إلى قسمات بشرية ومن ثم أخذت تتشـكل عـلى هيئة أنـثى!! نعـم أنـثى جميـلة، فهذا شعرها ووجهها وثدياهـا ونعومـة جيدها .. يا لدقة تعابير وجهها، ولكنها ليست مجرد أنثى، أي أنثى، إنما كانت سعاد ابنة منيرة الدكش .

أفـاق مـن شـروده . نزع أصابعه الماهرة عن التمثال الصغير الذي صـنعه مـنذ لحظات، استند بظهره بحرص إلى جدار الفاخورة المتشقق الـرطب حيـث ثبت قطعه من المشمع على الجدار. نفذت البرودة إلى ظهـره العـاري حيـث كـانت سياط عليش لا تزال واضحة بارزة في ظهـره الـنحيل. ألقـى عـلى نفسه سؤالاً ملحًّا، لماذا صنع تمثالاً لتلك الفـتاة التي بالكاد يعرفها؟ لماذا لم يصنعه لأمها رغم أنه يغوص في لجة لحمها منذ سنوات ؟

عـاد بذاكـرته إلى المرة الأولى التي رأى فيها منيرة بمفردها عن قرب حـين جـاءت ذات مسـاء تسـأل عـن أمه التي كانت عند الخالة أمونة وكيف أنه رأى في عينيها وميضًا غريبًا. وكيف فطن من نبرات صوتها إلى رغـبة محمومـة في أن تضـمه إليهـا، ولكنه برغم كونه قد أتم عامه العشـرين آنذاك فإنه لم يذق امرأة من قبل لذا لا تفارق خياله صورة تـلك الفـتاة الـتي رآهـا تسـتحم في الـنهر عاريـة بالقرب من موردة السعداوية في قيلولة أحد الأيام، وكيف أنه ظل يدقق في الفتاة التي لم تفطـن لوجـوده خـلف شـجرة الصفصاف الكبيرة، وكيف أنه أصبح أسيرًا بعد ذلك لعادة قاتلة لم يتخلص منها حتى بعد أن عرف طريق منيرة وصاحباتها .

وإن كـانت منيرة في ذلك المساء قد اكتفت بأن نفحته جنيهًا كاملاً ليشـترى لنفسـه جلبابًا نظيفًا واكتفى هو بشكرها بخجل، فإن ملمس يدهـا الطـري وهـى تعطيـه المـال ما زال عالقًا في إبهامه وسبابته بل ظلت نظراته معلقه بمؤخرتها حتى غابت عن ناظريه .

ولكـنه الآن وبعد كل هذه السنوات لم يفهم كيف انساق إلى عالم منيرة بكل ما يحمل من جوع محموم لا يشبع ولا يهدأ ..

هـل لأمه دور في هذا ؟ وهل هي المصادفة وحدها التي جعلته يعود إلى كوخه ذات مساء بعد أن فرغ من عمله في الفاخورة ليجد منيرة في كامل زينتها في انتظاره ولا يجد أمه ؟

هـل كـان مرتبًا أن يحدث ما حدث بينهما ؟ وكيف أنه وجد نفسه دون أن يـدرى في أحضـان امرأة جميلة وللمرة الأولى في حياته ترتدى ثيابًا يفوح منها العطر ..

ثم بدا سؤاله لنفسه غبيًا عندما أيقن كم كان مخدوعًا ومنساقًا وهو يعود إلى كوخه ليجد امرأة جديدة كل مساء ولا يجد أمه كالعادة .

ولـلمرة الأولى مـنذ رحـلت أحس بما يشبه الراحة بعد أن توصل إلى هذه الحقيقة البشعة التي لم يدركها سوى الآن .. الآن فقط .

ولكـنه أفـاق وتمـثال سـعاد في يـده وأعـاد على نفسه السؤال مرة أخرى :

لمـاذا لم يصـنع لعـليش هـو الآخر تمثالاً وهو من يريد الانتقام منه لتراكمـات كـثيرة وحقـد دفين في قلبه؟! فعليش هو الوحيد الذي كان يجاهـر في غرزة البكرور أنه يمارس الفاحشة مع أمه وعليش هو نفسه مـن تعمـد إيـذاءه لعشـرات المرات، وعليش من صمم على قتله إذا سـنحت لـه الفرصـة لمعرفـته بعلاقـته بمنيرة زوجته التي تمتص رحيق الحياة منه دون أن تراعى صحته التي تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، بل إنها لا تـراعى مشـاعره وأحاسيسـه، فـلم ينس حتى الآن يوم قدمت إليه

راغبة فيه بعد أقل من عشرة أيام على وفاة أمه! وكيف أنها تفلت في وجهه عندما رفض أن يعاشرها ! وكيف أنها أسمعته وابلاً من السباب له ولأمه التي كان ما زال حزينًا باكيًا عليها .

تذكر أيضا أنه كان قد تعود أن يصنع تماثيل صغيرة لمن يكره ومن ثم يحطمها حتى يخرج تلك الحمم النارية في أعماقه، صنع تماثيل للعمدة سلامة والزنكلونى شيخ البلد والبكرور وزكى أبو دماغ وطه السباعي حرامى الحمير وكثير ممن شك في أنهم نالوا من أمه ذات يوم .

وإن كانت العلقة الأخيرة التي ذاقها على يدي عليش قد تركت أثارًا موجعة في ظهره ووجهه وخصوصًا عينيه فإنها تركت الأثر الأكبر في صدره المملوء بالحقد والرغبة في الانتقام من عليش وزوجته وكل من استنزفه وكل من لوث سمعته وكل من استغل كونه وحيدًا دون عائلة تحميه أو عصبه تذود عنه .

كانت هذه العلقة وهذا الضرب المبرح هما الريح التي هبت على جذوات الحقد في أعماقه فأشعلتها في تلك اللحظة من صباح ذلك اليوم البارد .

قرر برهان عجب جابر أن يطفئ ذلك اللهيب وأن يريح أمه في قبرها، قرر الانتقام لأبى السعود الذي يحب والذى لم يسلم هو الآخر من سباب وسخرية عليش وصبيانه. كان قراره صعبًا واختياره لضحيته أصعب، حتى هداه تفكيره المشوش إلى أن يقتل سعاد ابنة عليش ومنيرة ليحطم الأسرة كلها، فما أغلى الأبناء وما أعز الابنة الوحيدة .

لقد اعتقد أنه بقتله سعاد التي لم يقترب منها من قبل ولا يحمل في قلبه أية ضغينة تجاهها أنه سيقضى نهائيًا على هذه الأسرة الحقيرة .

(١٣)

تمتم أبو السعود بدعاء المكروب وهو يطوى سجادة صلاته والتي أهداها له المعلم عبد الحى الحصري "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم" . اتجه حيث مشتل الخضار الذي بدا بهيجًا ونسمات الهواء الباردة تداعب شجيرات الجرجير والفجل فتمايلت فيما يشبه الموجة ثم سرعان ما عادت إلى ما كانت عليه وكأنها نظرت الشيخ الوقور وقد أتى .

حش الرجل بعضًا منها، لفها في حزم صغيرة بأعواد من القش النظيف كان قد بلله بالماء حتى يلين ، حمل "الخضرة" إلى خارج الكوخ من ناحية الطريق عند انعطافة النهر حيث يتجمع عمال إدارة الري الذين يحرصون كل الحرص على شراء خضار أبو السعود، إذ يرون فيه بركة أكثر منه طعامًا، كان كل من يفد إلى تلك المنطقة لابد أن يكون قد تناول كوبًا من الشاي مع الشيخ واستمع إلى كلامه الذي يريح القلوب ويفك من كرب المكروبين .

طوى الشيخ قطعة المشمع التي يفرش عليها خضراواته ثم دلف إلى كوخه بعد أن بيعت كل الكمية التي حشها هذا اليوم .

ثم جلس جلسته المحببة إلى نفسه قرب النهر ورفع بصره إلى السماء بعد أن خلع طاقية الصوف وبدا صوته حزينًا باكيًا حين دعا قائلاً :

" اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم

وعذاب القبر وفتنة الدجال، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها، اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم واسمك العظيم من الكفر والفقر" .

ثم دخل في قراءة ورده اليومي ولكنه لم يستطع أن ينهيه، هو الذي لم ينقطع عن هذه العادة منذ خلف القرية وراءه من أكثر عشرين عامًا. تطلع الرجل إلى صورته التي انعكست على صفحة الماء الرقراق، تحسس بيده لحيته البيضاء التي زادت وجهه إشراقًا ونورًا .

رفع عينيه الواهنتين وتطلع إلى الشمس الباهتة التي ترسل أشعتها ضعيفة وشاحبة. كان قلبه ينتفض بعنف. استعاذ بالله من شر ذلك اليوم . كان لديه إحساس غامض لم يفهم دواعيه أن حدثًا جللاً سيقع .

قام من مكانه مستندًا على عصاه، رفع كفيه إلى السماء تضرعًا في أن ينزع رب العالمين الشر والحقد من قلب ذلك الفتى الضعيف المسكين بعد أن أصبح وحيدًا وسط أناس لا يريدونه بينهم، عاد بالذاكرة إلى الوراء بعيدًا، رأى نفسه تاجرًا كبيرًا لا يستقر له مقام بمكان، كان قويًا مهابًا يملك الكثير ويحلم بالمزيد، كان ذائع الصيت في تجارة الغلال والحبوب، وواحدًا من قلة احتكرتها لسنوات طويلة، لم تكن الرحمة أو الشفقة تعرفان طريقهما إلى قلبه، كان كل ما يهمه هو الربح بأية وسيلة .

دمعت عيناه وهو يتذكر كيف اختزن أطنانًا من الأرز يوم أصيب محصول البلاد كلها، وكيف كان يرى الجوعى من أبناء قريته قد وصل بهم الحد إلى طهو "الجعديد والكِّبر والسلق" تلك النباتات التي تنمو متطفلة في حقول البرسيم ولا تأكلها سوى الحيوانات الضالة .

كان يتلذذ وهو يزداد ثراء والناس من حوله تكاد أن تكفر وهي لا

تتورع عن فعل أي شيء في سبيل ما يستر البدن ويسد الرمق، ورغم أنه دفع الكثير حتى يحصل على البكوية من الملك الراحل، فقد كان بخيلاً مقترًا على أهل بلدته الذين يعمل أغلبهم في خدمته وخدمة أسرته ذات الأصول التركية ولم يكن أبو السعود يختلف في شيء عن أقرانه من الجبارين في ذلك الزمن القديم.

كان يعيش في منزل كبير خارج القرية حيث رحل معظم أفراد عائلته إلى إسطنبول بعد قيام الثورة. وبعد خلوته واعتكافه انقطعت صلته بهم بعد ذلك، كان شهوانيًا عاشقًا للنساء لا يفرق بين برنسيسة يراها في حفلات الكوكتيل أو في الكلوب المصري أو بين خادمة لديه، كان يعتقد بقوة أن النساء مثل الفواكه والخضراوات يجب أن نأكل التفاح ولا يمنع أيضًا من تناول الباذنجان بين الحين والآخر.

رآها ذات يوم. كانت جميلة بيضاء على غير عادة الفلاحين، كانت تقيم نصبة للشاي بجوار مضرب الأرز بكفر الزيات، يتيمة تعيش في كنف خالها عجب جابر "بتاع المراجيح" الذي يأخذها معه من مولد إلى مولد.

تفحصها أبو السعود وهي تقدم له الشاي بحذر خوفًا من بطشه وجبروته اللذين كانت قد سمعت عنهما من خالها، نظر إلى جلبابها الرث وبالتحديد إلى ذلك الأخدود الجميل ما بين نهديها، كانت في العشرين أو ربما تزيد قليلاً، فائرة، مفعمة بالحياة، مثيرة، تذكر زوجته دولت التي تصيبه بالكآبة والغثيان كلما اقتربت منه، كانت دائمًا تفاخر بأن والدها ناظر الخاصة الملكية وأن أخاها ثابت من المقربين للملك ومن ندمائه المخلصين، وقال الناس بعد ذلك إنه أصر على الرحيل مع فاروق عندما رافقه في رحلته الأخيرة على اليخت المحروسة إلى إيطاليا. كانت تسكن بجوار المضرب في غرفة صغيرة في

بـدروم أحـد المـنازل القديمة مع خالها وزوجته حيث كان عجب جابر عقـيمًا لا يـنجب فاتخذها ابنة له بعد دخول والدها السجن في قضية مخـدرات ورحيل أمها بعد ذلك بسنوات، اقتحم أبو السعود حياتهم، بعدما دخلت الفتاة دماغه وسيطرت على كل حواسه، نقلهم إلى منزل آخـر كـان قد استأجره لهم في طنطا. قال إنه يريدها زوجة ولكن لا بد أن يظل هذا الموضوع طي الكتمان، عاشت أيامًا في نعيم، كانت تشعر أنهـا في الجـنة . كان برغم قسوته وجبروته الظاهر حنونًا معها عطوفًا على خالها وزوجته .

أفـاقت مـن نشوة الخيال الذي حلقت فيه ذات صباح على اختفاء الـرجل، كـان يأتيهـا مسـاء كل يوم حتى ذلك المساء الذي انقطع فيه دون أن يخـبرها بسـبب تغيـبه، ومـرت مساءات كثيرة ولم يأت، وشهر تبعه شهور أخرى، وليس للرجل أي أثر .

وضـعت مـا في أحشـائها، بحـثت في حاجياتهـا بعد أن طردوا من المسـكن الـذي استأجره لهم فلـم تجد ورقه الزواج العرفي التي كان قد كتبها .

بحـثت عـنه في كـل مكـان كـان يجـلس فيـه، أحست بأن أصدقاءه ومعارفه قد اتفقوا على ألا يخبروها بمكانه الحقيقي، لم تكن تعرف عنه سـوى اسمـه الأول وأنـه واحـد من بكوات المنصورة، حتى في لحظات صـفائها معـه لم يخطـر ببـالها أن تسأله عن أهله أو أسرته، فقد كانت تشـعر أنـه يكفيهـا وأنـه الهدية التي أرسلتها لها السماء بعد سنوات طويـلة مـن الحرمان والشقاء، رضيت بقضاء الله وبمشورة خالها عجب جابـر "بتاع المراجيح" في أن يسجل الرضيع باسمه، عادت إلى عملها لـبيع الشـاي بجـوار مضرب الأرز، كانت تتطلع في كل تاجر تقدم له كوبًـا من الشاي، حتى أنهم فسروا نظرتها المتفحصة أنها ربما تكون شبقة تبحث عـن رجـل أو مجنونـة أو حتـى تريـد سرقـة حافظاتهـم

المحشوة دائمًا .

بعد وفاة خالها وعودة زوجته إلى أهلها في زفتي بدأت رحلة البحث عن الرجل الذي وضع فيها بذرته واختفى، حملت ابنها برهان وطافت به قرى المنصورة وكفورها وعزبها ومن القطار الفرنساوى إلى عربة مزدحمة بالناس والحيوانات إلى كارو يجرها حمار مريض ومن المبيت في مسجد إلى المبيت في مضيفة عمدة أو شيخ بلد ومن أكل ما كانت قد جهزته لهذه الرحلة الشاقة إلى أكل ما تجود به أيدي أصحاب القلوب الرحيمة .

حتى ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى قريته، سألت عنه، فعرفه الناس من اسمه الأول الذي تحفظ عن ظهر قلب، كانوا ما يزالون يتذكرونه، لم تصدق ما سمعت، حتى بعد أن أفاقوها برش بعض الماء على وجهها، كانت ما تزال مذهولة فالصدمة أكبر من احتمالها .

حكى لها الرجل الذي استضافها في بيته بعدما سمع حكايتها أن أبا السعود الذي كان واحدًا من أعيان الناحية كان قد سافر إلى القاهرة لتسويق كميات كبيرة من الأرز الذي جمعه من الفلاحين خلال الشهرين الماضيين، وفى أثناء سفره اجتاح وباء الكوليرا المديرية كلها. فمنعت الحكومة الناس من دخول المناطق الموبوءة وكذلك الخروج منها. كان دائم الاتصال بزوجته همت في بيتهم الكبير حتى ذلك اليوم الذي صاح فيه التليفون ولم يجبه أحد، استطاع اختراق الحصار المفروض على القرية التي كانت نسب الوفيات فيها قد سجلت أعلى معدلاتها .

هرول إلى المستشفى بعد أن أخبر أن أسرته قد أفناها الوباء وأن زوجته وأربعة من أولاده قد ماتوا ولم ينج سوى ابنه الأكبر كمال الذي كان يدرس في تركيا عند أخواله .

وعندما استعاد توازنه كان الرجل قد تغير، يقولون إنه لزم مقام

السيدة نفيسة عامًا كاملاً يبكى وينتحب، ثم عاد حيث ابتنى لنفسه كوخًا صغيرًا على شاطئ النهر بعيدًا عن القرية وقريبًا جدًا من المقابر التي بها أسرته التي فقد.

أفاق الشيخ من شروده على صوت فأر صغير يعبث بأسنانه في قطعة الخبز اليابس التي ألقاها على شاطئ النهر مسله أمس، تذكر يوم رآها ماثلة جامدة الملامح وسط هذا الكوخ نفسه، لم يعرفها أول الأمر. ولم تتخيل أن يصل الحال بأبو السعود إلى مثل الذي ترى.

أخبرته أن له ولدًا، بكى وانهمرت دموعه كثيرًا، أخذه في أحضانه، أحس أن الله عوضه عمن أخذه منه، كانت كلماته القليلة المرتجفة وهو يحتضن الطفل أقوى اعتذار يختفي وراءه من قبح فعلته. حين قال:

- عرفت طريقي ودعيني أكفر عن ذنوبي التي ارتكبت، أنا لم أعد أملك شيئًا من حطام الدنيا الفانية بعد أن حضر ولدى من تركيا واستولى على كل شيء ورحل، بل ادعى أنني قد جننت ولولا خاله ناظم لكنت الآن في مستشفى الأمراض العقلية بناء على طلبه، دعيني وشأني ودعي الطفل يحضر إلى هنا من فترة إلى أخرى حتى أراه، ولا تخبريه أني والده، فهذا أفضل له ولك.

تذكر أيضًا كيف رضخت المرأة لما قال، وكيف عاش يراقب ابنه من بعيد دون أن يفعل له شيئًا، كان يراه سعيدًا كل السعادة وصيته يسطع في البلاد كأفضل صانع للفخار دون أن يدرى أنه ابن لرجل من سادات الزمن الغابر.

كان يكتوي بنيران الشوق والمحبة وهو يرى نظرة الانكسار والذل في عيني ولده الذي يبحث عن أبيه الحقيقي لسنوات طوال دخل فيها متاهات الشك وكهوف الريبة في أمه وفى نفسه، كم من مرة حاول أن يخبره أنه ابنه من صلبه ولكن الكلمات توقفت في حلقه وأبت أن

تخرج. وكم تمنى أن يحمل هذا الفتى المسكين اسمه الذي نسيه الناس بعد أن كان ملء السمع والبصر، وكم تمنى لو ضمه إليه ذات يوم.

وكم لام نفسه وأنبها على سلبيته وهو يرى المرأة التي كانت زوجته في يوم من الأيام تهوى إلى مستنقع الرذيلة من أجل أن تجد لها مكانًا في هذه القرية القاسية التي لم ترحم ضعفها وانكسارها.

ولكن إن كان خلال كل هذه السنوات لا يملك إلا أن يحاسب نفسه ويبتهل إلى الله أن يصفح عنه مكتفيًا بعزلته وصمته فإن الوضع الآن أصبح مقلقًا وخطيرًا وهو يرى ابنه مصابًا بحمى الانتقام الأسود التي سترديه إلى هوة سحيقة لا يعلم مدى خطورتها سوى رب العباد.

فعزم الشيخ الواهن أن يذهب إلي برهان ويصارحه بكل شيء بعد أن يتعافى من آلام الروماتيزم التي هاجمته مؤخرًا وجعلته يتحرك بصعوبة.

## (١٤)

تـلوت مـنيرة الدكش من الألم وعضت لحافها المصنوع من الستان الأصـفر الفـاقع، اسـتغاثت بسعاد التي كانت منهمكة في قراءة إحدى الروايات على لمبة جاز نمرة خمسة .

كـانت مـنيرة تعـانى آلام حصـاة كبيرة التصقت بجدار الكلى كما أخـبرها طـبيب الوحـدة الصـحية والـذي لم تكـن تعـتقد في جدوى نصائحه ولا حتى أدويته، كانت تريد الخالة أمونة في هذه اللحظة بأي شـكل لأنهـا الوحيـدة القـادرة على تخفيف هذه الآلام التي تحس بها كسكاكين تمزق أحشاءها .

لم تـدر سعاد ماذا تفعل وخصوصًا أن أباها لم يعد حتى الآن، ومن غير المتوقع أن يعود فهو الآن إما قد بدأ السهرة في غرزة البكرور لتوه أو في حضـن إحدى النساء اللاتي يتردد عليهن منذ أن هجرته منيرة في الفراش من فترة طويلة .

كـانت أمونـة حاذقـة في أمور العطارة والتحويجات التي تشفى في أغـلب الأحيـان، فقـد ورثت تركة لا بأس بها من الوصفات البلدية عـن أبيهـا سـعد الخواجـة الـذي كـان أشـهر معالج في الناحية كلها. ويقولـون إنـه من داوى عبد الله النديم عندما فر إلى بدواى وأصيب بالحمى ساعتها لم يسعفه غير الخواجة .

كـانت الخالـة أمونـة عذراء لم يسبق لها الزواج كما يقول البعض رغـم أنهـا قاربت التسعين، ولكن البعض الآخر يقول إنها تزوجت مـن السـنباطى الكبير عندما كانت في العشرين وإن زوجها لم يقض

في فراشها سوى أسبوع واحد وفجأة وجده الناس غريقًا في بئر ساقية الزعاترة المهجورة، حيث كان مولعًا بالكتب الصفراء المملوءة بوصفات الأعمال والسحر الأسود وكان بارعًا في عمل التعاويذ والأحجبة التي تجلب الحب وتورث الكره وتمنع الرجال من المعاشرة في ليالي الدخلة، ولكن حاله قد تبدل عندما وقع في يده كتاب قديم يحكى عن كيفية اتصال المرء بالعالم السفلى وكيفية تسخيره لهم وجعلهم خدامًا وعبيدًا يطيعون أوامره وينفذون رغباته، استقر به الحال في قاع الساقية ولم يعلم الناس أين اختفى الرجل حتى عثر عليه كلب قادته حاسة شمه إلى الجثة المتعفنة !!

ومن يومها عاشت أمونة في كنف القرية كلها أمًّا للجميع وقلبًا حنونًا للكل تدخل البيوت فى أي وقت تريد، تعرف السر فتصونه، وتستشار فتبدي النصح بطيب نفس، لا تطمع في أكثر من حبهم لها، عفيفة النفس فلم تطلب إحسانًا من أحد رغم أن الجميع يتسابق في إرضائها تعيش من ريع نصف فدان ورثته عن أبيها يستأجره شلبى التلبانى منذ أكثر من أربعين عامًا وأمونة هي المرأة الوحيدة التي تدخل مجلس العمدة وتبدي رأيها بفصاحة وبحجة قوية وبحكمتها هذه فضت الكثير من المنازعات بين الأهالي وأحيانا بين القرية وقرى أخرى.

كانت نسابة عالمة بالأسر وتسلسلها حتى الذي يشت منها ويعيش في مكان آخر كانت تعرف أصله وفصله وإلى أين انتهى به المطاف، فعندما قضت الكوليرا على دار الكنانى واحتار العمدة كيف يتصرف في أرضهم ومواشيهم تذكرت أمونة أن لهم ولدًا كان قد هج من القرية منذ أكثر من عشرين عامًا بعد أن رفض والده تزويجه من إحدى بنات العرب الرحل الذين ينصبون خيامهم في أراضى القرية في مواسم حصاد القمح وسط غابة من قطعان الأغنام والماعز.

وذكـرتهم كيف تزوجها مسعد الكناني وعاش معها في المنصورة يبيع الطرشى في حي ميت حدر وسط المنصورة القديمة بـل وذهبـت إليـه أمونة وأحضرته ليرث تركة أهله الذين هلكوا .

ويقولـون أيضًـا إن أمونـة هـي الوحيدة التي تعرف مكامن رجال الـليل في مناطق الغاب والهيش خارج القرية، وإنها كثيرًا ما عالجتهم مـن أثـر رصاصـة طائشـة أو مـن لدغة عقرب أو ثعبان دون أن تنال أجرًا أو تفضح لهم سرًا .

كـانت الأرض لا تـزال مبتـلة ولكـن أقـدام الناس والدواب قد خطـت فيهـا مدقات يابسة بعض الشيء فأعطت مجالاً لسعاد حتى لا تضـطر إلى الخـوض في الـبرك الطيـنية الـتي تجمعـت في الأراضـي المنخفضة من جراء سقوط المطر بغزارة فجر هذا اليوم .

وسـعاد الـتي كـانت تخشـى الظلام الذي يخيم على القرية في مثل تـلك المسـاءات الـباردة من شهر فبراير كانت تخشى أكثر الخروج في مـثل تـلك السـاعة وخصوصًـا أن بيـت أمونة بالقرب من الكوبري الخشبي القديـم بكـل مـا يثير في النفس من كوامن الخوف والرهبة حـتى في قـلب أعـتي الـرجال، فمـا بالك بسعاد ذلك الكائن الرقيق الـذي عـاش وولـد في المكـان الخطـأ كمـا باتت هي أيضًا تصدق ما أخبرها به مدرس اللغة العربية .

خـرجت سعاد من بيت أمونة التي وعدتها أن تلحق بها لإسعاف أمهـا بعد أن تنضج حلة العدس التي كانت تفور احتجاجًا منها على نيران وابور الجاز ذي الصوت الجهير .

كـان بـرهان عجب جابر ينتظر تلك اللحظة على أحر من الجمر مـنذ عقـد العـزم عـلى الانـتقام. كـانت فرصة نادره لن تتكرر كثيرًا، كـانت عيـناه تلمعان تحت أشعة القمر الشاحبة في تلك الليلة الملبدة بالغيوم ، ولكنها مع ذلك سمحت للقمر أن يرسل بصيصًا صغيرًا من

ضوء سرعان ما يخبو تحت وطأة سحابة سوداء مرعبة .

عبرت سعاد الكوبري الخشبي مخلفة وراءها منزل أمونة الوحيد في هذه المنطقة فبدا كناب نخرة وسط فضاء فم مظلم لعجوز طاعن في السن . كانت الأرض الزراعية التي تفصل الكوبري عن بقية البيوت متسعة من ناحية الكوبري ولكنها سرعان ما تضيق حتى تتحول إلى طريق صغير ملتو محاط بسياج من الغاب، يتسع هذا الطريق مرة أخرى فتبدو القرية من ورائه ساكنة غارقة في ظلام كثيف حتى صباح اليوم التالي .

تذكرت سعاد قول العمدة حسنين ابن العمدة سلامة الذي رحل منذ أيام عندما اجتمع بالأهالي في جرن الشواطفة إن الكهربه ستدخل القرية في القريب العاجل وكان بجانبه مرشحهم الانتخابي وابن قريتهم عثمان عبد المجيد .

تمتمت بآيات من القرآن الكريم عندما اقتربت من الطريق الملتوي. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم واستعاذت من الجن وأعوانهم . تلفتت علها تجد أحد الفلاحين وقد عاد متأخرًا من حقله أو حتى أحد سكان الضفة الأخرى من النهر جله ليقضى سهرته في غرزة البكرور أو لزيارة صديق، ولكن كان الطريق خاليًا وموحشًا، اللهم إلا من نقيق الضفادع وخوفها الذي سيطر عليها إلى درجة التمكن .

أحست أن عيونًا تراقبها وأن شخصًا ما في أثرها ولكنها لا تراه . كانت تحس به قريبًا منها فأسرعت الخطى ثم سرعان ما حاولت أن تطمئن نفسها بأنها مجرد هواجس. وفى لمح البصر كممت يد خشنة فمها وجرتها جرًّا وسط الغاب، ومن ثم إلى شاطئ النهر، وفى المنطقة الطينية التي انحسر عنها الماء بحلول موسم الجفاف والسدة الشتوية . غاصت قدماها في الطين البارد. حاولت الصراخ ولكنها لم تفلح حتى في أن تصرخ صرختها الأخيرة .

## (١٥)

أيام طويلة قضاها حمدي حجاج مأمور المركز ومن معه من معاونيه الذيـن زرعـوا المخبرين والمرشدين في كافة أنحاء القرية وحتى القرى المجـاورة في محـاولات مستميتة منهم لفك لغز مقتل سعاد ابنة عليـش جـاد الله .

كان الحادث غامضًا، فالقاتل لم يأخذ متعلقاتها الذهبية ولم يترك أي أثر وراءه خصوصًا وأن الجثة ألقيت في النهر ولم يجرفها التيار الشديد القادم بعد فتح الهويس الكبير عند سندوب، ولحسن الحظ تعلق ثوب القتيلة بفرع شجرة صفصاف فظلت طافية على صفحة الماء حتى عثر عليها شحتة المراكبي صباح اليوم الثالث لاختفائها .

الطـبيب الشـرعي لم يوضـح أكـثر مـن أنهـا ضـربت بقالب من الطوب الأحمر كان ملقى على شاطئ النهر منذ سنوات لاحتواء بقاياه عـلى نسـبة كـبيرة من الفطريات والبكتيريا البحرية. ولكن ما صدم الجميع هو أن الطبيب أخبرهم أنها تعرضت لاغتصاب وحشي وأنها قـد قـاومت بكـل مـا أوتيـت مـن قوة حتى لفظت أنفاسها الأخيرة، وكانت يدها تقبض على خصلات من شعر القتيل واحتوت أظافرها على بقايا دماء وجلد بشرى .

اسـتجوب حمـدي حجـاج معظـم أهـل القـرية، اسـتعمل القسوة والتعذيب أحيانًا مع عربجية عليش ظنًا منه أن أحدهـم قد فعلها نتيجة خـلاف أو عـداء بيـنهم وبـين أبيهـا القاسي القلب الشحيح عليهم. وأخـيرًا لم يسـتطع العثور على أي دليل يقوده إلى من قتل هذه الفتاة

الطيبة كما شهد لها الجميع بالأخلاق الحميدة وحرصوا أن يؤكدوا أنها لم تكن صورة مكررة من أمها صاحبة السمعة السيئة والتاريخ الطويل والتجربة الموغلة في فساد الأخلاق.

أما عليش فلم ينطق بكلمة منذ أمر وكيل النيابة بدفن الجثة التي شيعتها القرية كلها في ليلة ممطرة موحلة، ولزم الرجل الذي انهار كما ينهار كتف جبل فجأة دون سابق إنذار أو أي بوادر- بيته ولم يخرج منه بعد ذلك إلا نادرًا، وقد قال بعض العاملين لديه إنه أصيب بالشلل ولكن يبدو أن هذا من تهويلهم، وكما تطوى الأيام كل أحداثها المفرحة وأيضًا المحزنة، طويت حكاية سعاد بعد أن لاكوها في أفواههم شهورًا طوالاً وبعد أن حللوا وخمنوا بل في أحيان كثيرة تطوعوا بزج اسم أحدهم ربما يكون قد فعلها حتى ذلك اليوم الذي انبرى فيه أحدهم وقال أعتقد أن من فعلها هو سي محسن ابن المعلم سالم النجار. فرد أحدهم بعصبية ساخرًا :

- ولماذا محسن بالذات يا فكيك؟

هنا اعتدل صميدة الفرارجي في جلسته وقال :

- إحنا كلياتنا عارفين إنه عينه عليها من زمان، يمكن الشيطان غواه فعمل معها الفعل البطال ولما خاف البنت تفضحه قام قتلها.

ولما كان المخبر الوحيد الذي أبقاه المأمور حمدي حجاج لمراقبة المقهى في حالة يقظة مؤقتة بعد أن شرب ثلاثة شاي وعمر دماغه بحجرين جوزة بالطبع على حساب صاحب المقهى شوقي البكرور الذي كان يلعن اليوم الذي ماتت فيه ابنة عليش فقد انفض عقد شلة الأنس واستوطن المخبرون المقهى وهات يا شرب وكأنها تكية الحكومة كما كان يصرح البكرور بينه وبين نفسه وهو ينفخ بغل في قطع الفحم الملتهبة في المنقد الكبير.

استدعى المأمور حمدي حجاج المهندس محسن سالم لاستجوابه بينما

كان يستعد لقضاء الخدمة العسكرية. على الرغم من أنه كان يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن محسن هذا الفتى الهادئ الطباع لا يمكن أن يفعلها، مع ذلك احتجزه لأكثر من أسبوع ثم أطلق سراحه دون أن يحوله إلى النيابة.

ولكن ومع أن الناس أخذت تكيل الاتهامات إلى القاصي والداني فإن أحدًا لم يقترب من برهان عجب جابر، مما جعله يتساءل بينه وبين نفسه: حتى في الجريمة ينسوني ويتجاهلوني! فلم يكن أحد منهم يتخيل أن يفعلها هذا الفتى، فلم يكن في نظرهم سوى "برهان ابن حميدة بتاع القلل والبلاليص".

وعلى الرغم من وجود شواهد كثيرة كان لابد لهم من استيعابها والتأكد من خلالها أن من قتل سعاد هو برهان وليس أحد غيره فلم تتجه شكوكهم ناحية الفتى مع أنه أكثر من ناله الأذى من عليش ورجاله، ولقد سمعه الناس وهو يقسم بعد أن ضربه عليش وحطم فخاره في سوق القرية بأنه سيحرق قلبه. ومن ينسى منهم أن منيرة قد استعبدته لسنوات طويلة وأنه كان يستنزف نفسه في سبيل شهوانيتها التي لا ترتوي.

وبرهان الذي هجر كوخه أو جحره كما كانوا يطلقون عليه منذ وفاة أمه واستوطن في الفاخورة على شاطئ النهر كثيرًا ما نصحه الناس أن لا ينام فيها ليلاً لأنها مسكونة ولكنه كان يقول لهم إن العفاريت والجن أرحم من الناس بكثير وأنها قد هجرت القرية خوفًا واتقاء لشرهم وأذاهم.

ورغم ما اعتراه من تغيير لم يفطن الناس له منذ قتل سعاد وكأن بصائرهم قد عميت واكتفوا بالتمتمة في أن ابن حميدة قد لبسه جني.

أصبح خروجه نادرًا مفضلاً الاعتكاف في الفاخورة ولم يعد يعمل بنفس الحماس، واكتفى بصنع قطعة أو قطعتين يأكل من ثمنهما. كان

يتحدث مع نفسه بصوت مرتفع. فى أول الأمر كان يتدارك نفسه عند قدوم غريب لشراء شيء مما يبيعه، ولكنه بعد ذلك دخل في مرحلة الهلوسة والهستريا فزادت نوبات الصرع التي كان قد اعتقد أنه بريئ منها لأنها لم تصبه منذ عدة أشهر.

شاهده الناس بعد ذلك يصيح أمام بيتها مساء وآخرون رأوه عند قبرها ينتحب، ولكن لا أحد ربط كل هذه الخيوط ببعضها غير محسن، فبعد أن تجاوز قليلاً صدمة موتها وبدأ يستعيد توازنه شيئًا فشيئًا قرر أن يكشف القاتل وخصوصًا أنه سيسافر إلى معسكره التدريبي في دهشور بالجيزة بعد شهر تقريبًا.

أيقن محسن أن صانع الفخار الذي تحول إلى ما يشبه المجذوب في الفترة الأخيرة هو من فعلها وهو من قتل البراءة والطهر اللذين قد تجسدا في سعاد.

حلم بها محسن، رآها سعيدة وفرحة داخل حديقة غناء يجرى تحت قدميها جدول صغير به ماء كالبلور الصافي.

كانت زهرة قد تفتحت لتوها، تنشد عالمًا نظيفًا طاهرًا، وكأن رب العالمين استجاب لها فعوضها خيرًا عن مرتع الرذيلة الذي كانت تعيش فيه، وأنقذها من بيت لا تراعى فيه حرمة ولا يهتم ساكنوه إلا بمصالحهم الشخصية حتى ولو جنى ذلك على أبنائهم.

ولكن كيف السبيل إلى إيصال هذا المعتوه إلى حبل المشنقة؟ هذا ما شغل محسن طوال تلك الفترة.

لم يستجب محسن لتوسلات أبيه في أن يترك أمر مقتلها للشرطة وأن يهتم بنفسه وبصحته وهو مقبل على تجربة الانخراط في الجيش الذي يستعد لمعركة شرسة.

إلا أن محسن الذي كان يجلس وحيدًا على مدخل الكوبري الخشبي، وفى المكان الذي سال فيه دم جده علي السعدواي منذ ما

يـزيد على ستين عامًا، كان قد رسـم خطة للإيقاع ببرهان عجب جابر لأنـه كـان يعـتقد أن مـا بداخل هذا الفتى من حقد وكره لأهل تلك القـرية كفيـل بحرقهم جميعًا وأن ما حدث مع سعاد هو بداية الانتقام، وكـان يعـتقد أيضًـا أن الشيطان الذي في أعماقه قد خرج من مكمنه بعدمـا تغـذى بنيران الهوان والمذلة والعار الذي ذاقه هذا الفتى حتى أصبح خطرًا على القرية كلها.

## (١٦)

جلس مجموعة من العربجية على شاطئ النهر بالقرب من الكوبري الخشبي القديم يمصون القصب ويلقون بمصاصتهم على صفحته المنسابة بهدوء ودعة، بينما حمل عليش جاد الله في عربة صغيرة يجرها حصان بناء على رغبته إلى المكان الذي لفظت فيه ابنته أنفاسها الأخيرة.

كان محاطًا بكثير من صبيانه الذين لم تخلو عيونهم من نظرات الشماتة في الرجل الذي أذاقهم الهوان والمذلة لسنوات طويلة، كانت الدموع قد شقت في وجهه الأبيض المشوب بحمرة شمس الريف أخاديد، عليش الذي لم يكن في قاموسه اللغوي مفردات مثل القضاء والقدر ودنيا فانية ورحمتك يارب، بدأت تتسلل منه هذه الكلمات إلى المحيطين به الذين أدركوا أن صدمة قتل ابنته لم تؤثر فقط في ذراعه الأيمن الذي أصيب بالشلل وإنما قد غيرت من فكر الرجل ونظرته للحياة بعد سنوات طويلة من العربدة والكفر بكل شيء عدا المال والجاه.

واندهش أحد الصبيان أكثر عندما طلب منه بهدوء لم يعهده فيه أن يحضر له الشيخ مندور ليقرأ القرآن بالقرب من المكان الذي أغمضت فيه ابنته إغماضتها الأخيرة.

كانت القرية لا تزال تنوء تحت سطوة الشتاء الطويل الذي لم يروا في حياتهم مثله حيث تساقط المطر في الأيام الأخيرة لأكثر من أربعة أيام دون انقطاع فحول القرية إلى جزيرة منعزلة وخصوصًا أن

الطريق الترابي الذي يربطهم بالقرى الأخرى أصبح بركة من الماء والوحل تصل إلى عمق أكثر من نصف متر فأصبح السير فيه أشبه بمن يخوض في مستنقع متعفن .

وهكذا بات النهر هو منفذهم الوحيد وشريان الحياة الذي يمدهم بما يحتاجون من مواد تموينية أغلبها سكر وزيت وملح وجاز فانتعش شحتة المراكبي الذي أصر على أخذ أجره مقدمًا عندما يجدف عكس التيار مسافة تزيد على عشرة كيلو مترات ليشترى ما يحتاجونه من سندوب أقرب مدينة إليهم .

وكم كان شحتة فخورًا عندما ركب معه المأمور حمدي حجاج صباح ذلك اليوم الذي بدأت فيه الشمس تخرج من أسرها فسرى الدفء في أوصال الناس ولكن المأمور بادر شحتة بسيل من الأسئلة عن حادثة سعاد ابنة عليش وعن تخمينه عمن فعلها وهو يشعل سيجارته المستوردة وينفث دخانها الذي اختلط مع البخار المتصاعد من صفحة النهر بينما كان مجدافا قارب شحتة يشقان صفحته بقوة واندفاع. غير أن شحتة الذي كان يسمع الكثير من همس الناس الذين يركبون معه في مشوار الصباح حيث إن معظمهم يعمل في مصنع الزيوت والصابون بسندوب وتعذر دخول الأتوبيس الخاص بالمصنع إلى القرية الموحلة - آثر السلامة وقال للمأمور حمدي حجاج بخوف ورهبة :

- يا بيه الناس نسيت الحكاية دى وكل سنة وانت وطيب الليلة دى الليلة الكبيرة لمولد سيدي الشنوانى والبلد فرحانة وموضوع سعاد الله يرحمها علمه عند اللي لا يغفل ولا ينام .

ولكن المأمور الذي نزل إلى القرية في ذلك اليوم بعد ما تلقى رسالة شفوية أرسلها له محسن سالم مع رضوان المخبر يطلب حضوره فورًا في أمر يخص قضية مقتل سعاد ابنة عليش جاد الله كان لديه

إحساس والقارب يقترب من القرية المحاصرة بالوحل وقد بدا الكوبري الخشبي من بعيد كعجوز متهالك أنه قريب جدًا من القاتل وأنه حتمًا سيقع عما قريب .

وفي ركن قصي من المركب الذي كان يئن بما يحمله من ناس وبضائع تقوقع شيخ متهالك لا يظهر من وجهه سوى لحية بيضاء بعد أن غطى رأسه بعباءة سوداء من الصوف الخشن وارتدى ثوبًا من نفس اللون. في أول الأمر حسبه الناس أحد الموالدية ولكنهم سرعان ما تنبهوا أن ذلك العجوز لم يكن سوى الشيخ أبو السعود .

## (١٧)

بدأت بشائر المولد تهل على القرية، وعلى الرغم من هذا الشتاء الطويل وهذه البرك في شوارعها وحول ضريح الشنوانى فقد بدأ الموالدية في نصب خيامهم ورفع بيارقهم التي تحمل أسماء ونحلاً لأناس قد توسدوا التراب منذ عشرات وأحيانًا مئات السنين.

والموالدية كما يطلق عليهم هنا قد تجمعوا حول الضريح واتخذت كل طريقة خيمة خاصة بها فيها يجتمع مريدوها وأتباع السجادة التي ينتمون إليها، فهذه خيمة الرفاعية والأخرى بجانب الضريح خيمة الحامدية الشاذلية وهذه لأتباع الجيلانى أما تلك المكتظة بالناس فلأتباع الدسوقى أبو العينين أما هذه فكانت لأتباع شيخ العرب البدوي وعشرات أخرى من الخيم تحمل أسماء غريبة وطريفة ولكنها مع ذلك لا تزال تنطوى على جاذبية مؤثرة.

ويفرح أهل القرية بالمولد فرحة كبيرة بما يحوى من مظاهر البهجة والسرور والورع الإيماني كما يعتقدون، ولا يحفل الناس هنا كثيرًا بضريح سيدي الشنوانى القائم فوق ربوة عاليه شمال القرية إلا لمدة سبعة أيام كل عام هي فترة إقامة المولد.

بعدها وطوال العام يصبح مكانًا مهجورًا ومرتعًا للصوص المواشي وملتقى للعشاق وطلاب المتعة الحرام، وكأن الشمس أرادت أن تشارك الناس فرحتهم في ذلك اليوم المهم في حياتهم، فسطعت بقوة وجلاء لأول مرة منذ شهر تقريبًا، فنظفت الشوارع وفرشت البسط على المصاطب وأخرجت الجلابيب الصوف من مكامنها في

الصناديق .

ازدحمت القرية بالضيوف ففتحت المنادر وغاصت الأيادي المعروقة الجافة في أواني الفتة واللحم. والمولد أتي ومازال مقتل سعاد تاركًا بعض آثاره على وجوه الناس فهي المرة الأولى التي تشهد القرية حادثة قتل!!

صحيح أننا كل مدة من الزمن نخرج غريقًا من البحر ولكنه يظل في الأخير غريبًا ويدفن في مقابر الغربله ويكون الحزن عليه مؤقتًا وينتهي بمجرد دفنه .

وصحيح أيضًا أننا نسمع كثيرًا من العجائز اللاتي تحلقن حول ركيات النار عن حكاية مقتل علي السعدواي ومريم ابنة مجاهد الشرقاوي ولكننا لم نعاصرها بل تحولت إلى ما يشبه الوقود الذي يدفئ جلساتنا في ليالي الشتاء الطويلة .

ولكن ومع ذلك كان للمولد رونقه وبهاؤه . وكعادته كل عام انبرى مندور التربي يحكي لمجموعة من الغربله عن بركات ساكن الضريح سيدي الشنواني وكيف أنه حرس قريتنا لعشرات السنين من فيضان النيل ومن هجمات أولاد الليل والمنسر وكيف أنهم ذات يوم سطوا على زريبة شيخ البلد وسحبوا ثلاثًا من إناث البقر ولكنهم لم يستطيعوا الخروج من القرية لأنهم والكلام للشيخ مندور الذي تنتفخ أوداجه ويميل وجهه إلى الاحمرار عندما يعترضه أحدهم بسؤال قد يعجز عن الإجابة عليه، ثم يكمل، إن اللصوص كلما هموا بالخروج من القرية وجدوا وحشًا مرعبًا تخرج النيران من منخاره الواسع المرعب محاولاً ابتلاعهم، ومن خلف الوحش الجبار يقف شيخ وضاء الجبين وعلى رأسه عمامة خضراء وقد أمسك بمسباح من اليسر في يد، وفى اليد الأخرى فانوسًا ينبعث منه ضوء لم يروا مثله في حياتهم .

ويـزيد مـندور أن اللصـوص ظـلوا عـلى هـذه الحال ما بين بكاء وصياح معلنين التوبة . ويزيد من حبك حكايته بأن يقول مفاخرًا بأن هؤلاء المجاذيب حول الضريح ما هم إلا لصوص تلك الليلة .

والقـرية مـثل مـئات القرى النائمة في حضن النيل هادئة ووديعة يعكـر صـفوها حـادث أو فضـيحة لإحـدى النسـاء تضبط في غيط أو بجـوار سـاقية ولكـنها سرعان ما تنسى وتعود إلى سابق عهدها هادئة وديعـة. يظـل فلاحوهـا طيـلة العـام مـا بين زراعة المحاصيل والسهر بجانبها خوفًا من دودة لاترحم ولا تعرف كم عانوا أو من جراد غادر أو حتى من تقلبات مناخ غير متوقع .

حـتى إذا جـاء موسـم الحصـاد ترى تلك الوجوه السمراء الناحلة أجسادها تحمل أسمى معاني الرضى بما قسم الله من رزق وبما جادت به الأرض من خير ونعمة .

والمولـد هو تقريبًا متعتهم الوحيدة فتلك الجلود المتشققة والأبدان المكدودة والمصابة بعشرات من أمراض الزرع من حقها أن تسعد ولو أيامًـا قليـلة كـل عـام، وخصوصًـا هذا العام بعد أن خيم الحزن لمقتل سعاد على أهل القرية جميعًا على الرغم من امتعاضهم لأفعال عليش وزوجته منيرة التي لم تر خارج منزلها منذ قتلت ابنتها .

ويفد إلينا في هذه الأيام المفعمة بالحياة والسهر عشرات من الباعة السـريحة الذيـن يتحولون من مولد إلى آخر في طول البلاد وعرضها وقـد كونـوا صداقات مع بعض أهل القرية وعندما يسألهم أحدنا في لحظة صفاء حول براد شاي :

– إلا انتم منين يا جماعة؟

لا نجد إلا الإجابة المعتادة والتي لا تطفئ ظمأ السائل :

– بلاد الله لخلق الله .

وبجوار المقام يجلس الناس عادة يشربون القرفـة والشـاي الممـزوج

بالحليب وهم في نشوة الاستماع إلى المنشدين ذوي الأصوات الشجية المحببة إلى النفوس، يحكى هؤلاء سيرة الرسول والصحابة وأهل البيت الذين يصورهم هذا الإنشاد أبطالاً لأساطير وملائكة تجوب ما بين السماء والأرض وذلك لإضفاء الإثارة وتقريب المعاني إلى عقول المستمعين البسطاء الذين يجدون في هذا إشباعًا روحيًّا محببًا.

وفى ساحة الضريح تقام الحضرة والذكر فتتمايل الأجساد مع ذلك الإيقاع السحري وتزداد الإثارة كلما علا الإيقاع فيزيد الرجال من التمايل فتتطاوح الأيادي ويتصبب العرق وينتهي عادة بسقوط أحدهم أرضا وقد أخذته النشوة إلى عوالم أخرى.

وفى وسط كل هذا الصخب فجأة تشق صيحة مدوية فضاء المكان فيصمت الجميع وإذا به برهان عجب جابر قذر الثياب طويل اللحية وقد أمسك بشباك الضريح وهو يصيح سعاد سعاااد سعااااااد ثم يسقط على أرض الساحة وقد دخل في نوبة صرع حادة.

## (١٨)

كـان البخار يتصاعد حارًّا من كوب الشاي الذي قدمه محسن سالم للمأمور حمدي حجاج وهو يحكى له بعض الشواهد التي جعلته يوقن أن مـن قتل سعاد ليس سوى صانع الفخار برهان عجب جابر، بينما كـانت عقـلية حمـدي البوليسـية تـربط هـذه الخيـوط بعضـها ببعض وتسـتخلص النـتائج التى أوصلته أخيرًا إلى فك طلاسم هذه الجريمة وقـد رسّخ اعتقادهما ما أضافه المعلم سالم النجار عندما أخبرهما عن حالـة الهياج التي انتابت برهان عجب منذ أقل من ساعة حول ضريح الشنوانى، وكيف كان يصيح باسم سعاد قبل أن يدخل في نوبة صرع حـادة ويـنقله الـناس والزبد ينثال من فمه بعد أن سقط في بركة من الوحل كانت قد تجمعت حول الضريح .

عـاتب المـأمور حمـدي حجـاج نفسه عندما لم يهتم كثيرًا بخبر جلد عـليش وايذائـه لصـانع الفخـار برهان عجب معتبرًا ساعتها أن هذا الفعل شيء عادى ويومي بالنسبة لتلك الفئة من العربجية ومن الباعة رواد السـوق، ولا يمكـن أن يؤدى مثل هذا الحادث الصغير إلى جريمة قتل واغتصاب بمثل هذه الوحشية!! وكان لومه لنفسه حادًّا لأنه لو كان استدعى هـذا الـبرهان وأخذ عينة من شعره أو حتى تفحص جسده وخصوصًـا أن المغـدورة عـثر في يدهـا وأظافـرها على بقايا من شعر وجلد ودماء القاتل الذي كان قريبًا منه دون أن يشعر به .

عـندما نـزل أبـو السعود إلى القرية اتجه إلى الجامع الكبير حتى لا تفوته صلاة المغرب فالتـف حولـه نفـر غـير قليـل مـن أبنـاء القريـة

وألحوا عليه في قبول ضيافة أحدهم ولكنه باغتهم بسؤال :

- هل رأى أحدكم برهان عجب جابر ؟

فانبرى الشيخ مندور يحكى له ما حدث منه عصر ذلك اليوم وأنهم نقلوه إلى كوخه ولم يتركوه إلا بعد أن ذهب في سبات عميق، ثم حكى مندور للشيخ الحال التي وصل إليها برهان فانسابت دموع الشيخ على ولده الذي قارب الفناء، ثم قام وصلى ركعتين وسجد طويلاً ثم قام متوكئًا على عصاه وطلب من الناس أن يستمعوا إليه فظنوا أنه سيلقي عليهم درسًا أو موعظة دينية رغم أنه لم يفعلها من قبل ولكنه كان ينصح ويوجه دائمًا بهدوء ولين .

ولكن أبو السعود فاجأهم وقص عليهم حكاية برهان وأمه حميدة التي كانت زوجته منذ أكثر من ثلاثين عامًا بكل ما تحمل الحكاية من خسة وبكل ما تحمل من ألم ومرارة .

خرجت زفة الخليفة من جانب ضريح الشنواني لتطوف بالقرية كعادتها كل عام، حملت عشرات من البيارق والرايات، مئات من الموالدية اختلطوا بأهل البلد، رهط من المداحين والمنشدين جلسوا على عربات تجرها خيول وأخذوا في الإنشاد والغناء. أصوات الدفوف والنايات صاحبت حلقات الذكر التي تقام عند كل ناصية في الشوارع المحيطة سرعان ما تنفض ويمشى الموكب ليقف مرة أخرى أمام بيت أحد الأعيان ليضجوا بالدعاء لصاحبه وبالطبع يكون الرجل كريمًا فيمنحهم ما جادت به نفسه وما سمحت به زوجته .

سيدة مسنة تلقى بكيس كبير من الحلوى على إحدى عربات المنشدين. طاعن في السن وضع على رأسه عمامة خضراء يتهافت الناس عليه ويتدافعون من أجل تقبيل يده .

طفل معوق حمله أبوه بسرور وامتنان ورفعه على الحصان الذي يركبه الخليفة وسط زغاريد أمه وأخواته البنات. التف الناس حول

الـرفاعية وصـاحوا وهلـلوا وهـم يـرون الـرجال الذيـن غرسوا في أجسادهم الأسيـاخ والإبـر ولفـوا حـول أعناقهـم الأفاعـي والحيـات بأحجام مختلفة .

انـدس زكـى أبـو دمـاغ حـلاق الحمـير وسط مجموعة من النسوة ثقيـلات الأرداف وقد ظهرت السعادة على وجهه. اقترب طفل صغير لم يتجاوز العاشرة من رجل اخترق فمه سيخ كبير وضع في نهايته ثمرة مـن ثمار الليمون، حدق الطفل كثيرًا في الرجل وتعجب كيف اخترق هـذا السيخ فم الرجل دون أية آثار لدم أو أي إحساس بالألم. حدق أكـثر. اقـترب من الرجل الذي لم يملك إلا أن يبتسم للطفل الصغير الذي ارتسمت على وجهه عشرات من الأسئلة بدون إجابة .

ضـاع أذان العشـاء الذي رفعه الشيخ مندور وسط صخب وجلبة زفـة الخـليفة فـلعن أبـو الموالديـة واليوم الأسود الذي قذف بهم إلى قريتـنا ونعـتهم بالكفـرة المشـركين، وهو من كان يجالسهم من ساعة ويحكى لهم حكاية الشنوانى وبركاته .

شـوهدت مـنيرة الدكـش خـلف الـزفة وهي توزع بنفسها أرغفة الـلحمة والفـول الـنابت رحمة ونور على ابنتها سعاد. جلست الخالة أمونـة بجـوار العمـدة حسـنين وشيـخ البـلد في خـيمة كـبيرة أعدت خصيصًا لرجال القرية الكبار .

انطـلق المأمور حمدي حجاج ومعه محسن سالم ومن خلفهما المخبر رضـوان وقـد غاصـت أقدامهـم في شـوارع القـرية الموحلة قاصدين فاخورة هريدى حتى يقبضوا على برهان عجب جابر .

## (١٩)

قـام منتفضًـا بعد لحظات . عرق غزير تجمع على جبهته المائلة إلى سمـرة مشـوبة ببعض الاحمرار . ليست هذه هي المرة الأولى التي تنتابه نوبـة مـن نوبـات الصرع وينقله الناس إلى الفاخورة فقد اعتاد على ذلك كثيرًا في الأيام الماضية .

نفـض عـن قدميـه حمـلاً ثقيـلاً من الصوف كان لا يزال يشم فيه رائحة أمه . تذكر يوم أتت به وكيف كانت مزهوة وهى تقول إن هذا الحمـل كان يستعمله العمدة سلامة وإن زوجته الست عديلة هي من أعطتها إياه .

لا يعـلـم لمـاذا قفـز إلى ذهنه الآن شريط طويل من الذكريات. ولا يعـلـم لماذا تذكر الآن المعلم هريدى الصعيدي، وأمه حميدة التي كان لا يزال يبكيها كل مساء، وتذكر أيضًا عليش وكيف أنه في هذه اللحظة بـالذات لم يعـد يكـرهه أو يحقـد عـليه، وتذكر منيرة التي هجرته منذ فقـدت ابنـتها. وأدرك كـم هـو الآن في حاجـة ماسـة إلى حنان ودفء شيخه أبو السعود .

أمسـك شـباك غرفـته الحديدي بكلتا يديه. نظر إلى الفضاء خارج الغـرفة الـتي لم يهـتم بنظافـتها مـنذ فعـلها . كان القمر مازال يرسل أشـعته الشاحبة التي كانت تنير المكان على استحياء . اهتزت الصور أمامـه مكونـة شـيئًا مـا يتحرك؛ خاله في أول الأمر كلبًا يبحث لنفسه عـن مـأوى دافئ في هـذا الجـو المظلم الشديد البرودة. كانت الغيوم السـوداء تكسـو القبة السماوية فصار لونها رماديًا داكنًا. كان الشيء

المتحرك لا يزال في مكانه ولكنه ليس كلبًا كما ظن بل ليس حيوانًا على الإطلاق . وضع رأسه بين قضبان حديد النافذة . حملق .. استطالت رقبته كثيرًا . يا لهول ما يرى .. إنها فتاة ..لا ..بل امرأة هكذا قال لنفسه ، بل هي أنثى بكل ما تحمل اللفظة من معان .

إنها سعاد نعم سعاد. اقتربت حتى أصبحت أمام نافذته . كانت هادئة كعادتها . لا يبدو أنها مستاءة أو ضجرة منه. كانت تبدو كملاك صغير. تتطاير خصلات شعرها الحريري مع نسمات الليلة الباردة .

لم يكن يسمع أي وقع لأقدامها على الأرض . ارتعد .. هم أن يصيح . صاح لكن صرخته ضاعت مع الرياح ذات الصفير، حاول مرة أخري . تراجع في غرفته. حاول أن يوضح لها لماذا فعل بها ما فعل. أراد أن يخبرها أنها لم تكن المقصودة وأنها كانت ضحية أبيها وأمها وكل أهل القرية التي لم يعد يكرهها كسابق عهده .

أتى صوتها إليه ناعمًا حالمًا :

- "ماذا حدث لك الليلة؟ ولماذا تعذب نفسك هكذا؟ ولماذا طلبتني الآن؟ هيا أخرج من وراء قضبانك. أريدك الآن . سأحل لك هذه المشكلة" .

انساق وراء قدميه اللتين قادتاه إليها غير أن الخوف كان يملأ كل كيانه !!

أمعقول أن تكون هي؟ وإن كانت هي هل تسامحني؟ وجد يده تفتح باب الفاخورة الخشبي. كانت رائحة المسك تملأ المكان! هذا ما استطاع أن يميزه غير أنه لم يستطع تمييز بقية الروائح، ولكن الغريب أنه كان ثمة شيء يدعو للراحة والاطمئنان. ترك نفسه لها .

أمسكت يده. مشى وراءها في دعة واستكانة . زال عنه توتره . كان نباح الكلاب يخترق أذنيه اختراقًا، وكان ذلك يزعجها كثيرًا. جلسا على شاطئ النهر . وضع قدميه في الماء البارد. سرت النشوة في عروقه

.. همست إليه :

لماذا طلبتني اليوم ألم أكن معك بالأمس؟

ابتسم قائلاً :

- ما أحوجني إلى النظر في عينيك !

لمعت عيناه اللتان لم تعرفا النوم من يومها . حرك قدميه في الماء المتدفق بقوة بعد انتهاء السدة الشتوية وفتح الهويس الكبير .

كانت الأمواج تضرب بشدة عوارض الكوبري الخشبي القديم. ثم تخرج منه مكونة دوامات عملاقة تبتلع أي شيء يعترضها . كان يغوص بهدوء وهي معه. استعذب برودة الماء. سرت القشعريرة في جسده. جر نفسه ناحيتها. ضمها إليه. طاف بيده على ذلك الشعر الفاحم. غاص في بحر عينيها و كانت النشوة تغمره عندما قالت :

سترحل معي هذه المرة. هيا أعطني يدك. انساق إليها. ترك نفسه. عذوبة الماء تغريه بالموافقة. لف يده حول رقبتها. ضمها بقوة .. احتضنها أكثر . ارتوى من رحيق شفتيها. لم يكن يعرف أنه يحبها .. كل هذا الحب .. تلاشى فيها. ثم ذابا سويا ...

الدوحة في مايو ٢٠٠١

# من قائمة الإصدارات الأدبية

| | | | |
|---|---|---|---|
| ليلة العشق والدم | إبراهيم عبد المجيد | أيام الفزع في الجزائر | خالد عمر بن ققه |
| حمدان طليقا | أحمد عمر شاهين | يومية هروب | خيرى عبد الجواد |
| الهاجس | أحمد بدران | مسالك الأحبة | خيري عبد الجواد |
| ملاعيب الأكابر | أحمد الشيخ | العاشق والمعشوق | خيري عبد الجواد |
| سريب | أحمد الفيتورى | حرب أطاليا | خيري عبد الجواد |
| ظل باب | أحمد محمد حميدة | حرب بلاد نمنم | خيري عبد الجواد |
| وقائع غرق السفينة | إدريس علي | حكايات الديب رماح | خيري عبد الجواد |
| واحد ضد الجميع | إدريس علي | الحدود | رأفت سليم |
| المبعدون | إدريس علي | الطريق والعاصفة | رأفت سليم |
| طريق النسر | إدوار الخراط | في لهيب الشمس | رأفت سليم |
| صخور السماء | إدوار الخراط | اركبوا دراجاتكم | رجب سعد السيد |
| تباريح الوقائع والجنون | إدوار الخراط | أنا ونورا وماعت | رفقي بدوي |
| رقرقة الأحلام الملحية | إدوار الخراط | سيرة عزية الجسر | سعد الدين حسن |
| يقين العطش | إدوار الخراط | شجرة الخلد | سعد القرش |
| مخلوقات الأشواق الطائرة | إدوار الخراط | تائهون فى الحياة | سعدية البياتى |
| متى تتزوجنى ؟! | أشرف خليل | شهقة | سعيد بكر |
| الهيش | أشرف العوضي | حبيبى يا ناس | سليمان كابو |
| حذاء السيد المتسى | أشرف العوضي | أرجوحة | سمير الفيل |
| عندما تبيض الديوك | أمجد صابر | ظل الحجرة | سمير الفيل |
| لا أحد يحبك | أمانى فهمى | قطار الساعة ١٢ | السيد الشوربجى |
| همس العاشقين | أمين بكير | أيام هند | سيد الوكيل |
| حكايات من دفاتر النسوان | أمين بكير | كف مريم | سعيد سالم |
| ألم يخلقها الله امرأة | أمين العزب | سفر الموت | شاطبى يوسف ميخائيل |
| مأساة أسرة | أمين العزب | الممنوع من السفر | شوقى عبد الحميد |
| أشياء خاصة جدا | أمينة العمادى | أيام القرية الأخيرة | صالح سعد |
| الخيول الشاردة | بهي الدين عوض | درواتين | عاشور الطويبى |
| قبل وبعد | توفيق عبد الرحمن | الدميرة | د.عبد الرحيم صديق |
| دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢) | جمال الغيطاني | الخرابة | د.عبد الرحيم صديق |
| مطربة الغروب | جمال الغيطانى | مرسى ديله | عبد الفتاح البشتى |
| تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص | د. جمال التلاوي | الغربان لا تختفي أبدا | عبد الفتاح صبري |
| الرقص على حافة الجرح | جمال فايز | جسد في ظل | عبد النبى فرج |
| المتعبون | جمعة محمد جمعة | الفوز للزمالك والنصر للأهلى | عبد اللطيف زيدان |
| دموع إيزيس | حسنى لبيب | ليس هناك ما يبهج | عبده خال |
| بالمقلوب | د. حمدى حمودة | لا أحد | عبده خال |
| أحزان رجل لا يعرف البكاء | خالد غازى | آخر ما قاله النهر | عز الدين الأسوانى |
| الحب والتتار | خالد عمر بن ققه | هى | عز الدين الأسوانى |

| | | | |
|---|---|---|---|
| صنعيدي صنح | د. عزة عزت | رحلة المغرب | محمد الشرقاوى |
| في انتظار ما لا يتوقع | عصام الزهيرى | الخرابة ٢٠٠٠ | محمد الشرقاوى |
| سراديب | عفاف السيد | كوميديا الانسجام | محمد بركة |
| إينارو | د. علي فهمي خشيم | طوفان النار | محمد حافظ صالح |
| تحولات الجحش الذهبي | ترجمة : د. علي فهمي خشيم | هذيان | د. محمد حسن غانم |
| حكاية شمردل | عمار علي حسن | كل الأشياء الجميلة تنهار | د. محمد حسن غانم |
| الزجاج المكسور | د. غبريال وهبه | عبور الميدان ظهراً | محمد سليمان |
| حكاية موت طائر (في قصة ومقامة ومسرحية) | د. فاروق أوهان | تل المعافرة | محمد شاكر |
| جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدا) | د. فاروق أوهان | مدافع الآب عياش | محمد صدقي |
| البحر يغرق | د. فاروق أوهان | أشياء لا تموت | محمد صفوت |
| وجهها وطن | فاطمة يوسف العلي | وداع لم يتم | محمد صفوت |
| تاء مربوطة | فاطمة يوسف العلي | إلحاح | محمد عبد السلام العمرى |
| ينابيع الحزن والمسرة | فتحي سلامة | بعد صلاة الجمعة | محمد عبد السلام العمرى |
| شقيقة .. وسرها الباتع | فواد قنديل | هالة النور | محمد العشرى |
| الحمامة البرية | فؤاد قنديل | تفاحة الصحراء | محمد العشرى |
| لبلاد طلبت أهلها | فيصل سليم التلاوى | صدقني لأنني أكذب | محمد علي سعد |
| يوميات عابر سبيل | فيصل سليم التلاوى | حبال من رمل | محمد علي سعد |
| وتر مشدود | قاسم مسعد عليوة | لوحة ممنوع | محمد علي سعد |
| خبرات أنثوية | قاسم مسعد عليوة | الحواس | ترجمة : محمد عيد إبراهيم |
| حب وظلال | كوثر عبد الدايم | حريم .. (أعزكم الله) | محمد الغربي عمران |
| ترانزيت | ليلى الشربيني | ضمائر في قفص الاتهام | محمد فتحي |
| مشوار | ليلى الشربيني | الرقص في أكفان الموتى | محمد فتحي |
| الرجل | ليلى الشربيني | الخروج إلي النبع | محمد قطب |
| رجال عرفتهم | ليلى الشربيني | رشفات من قهوتي الساخنة | محمد محي الدين |
| الحلم | ليلى الشربيني | يا عم يا جمّال | محمد الناصر |
| النغم | ليلى الشربيني | الحياة الذروة | د. محمد نعيم شريف |
| أمير المدينة | ماهر أبو السعود | أرتيكاريا العسكريتاريا | محمد يوسف |
| حكاية ليلة طويلة | ماهر أبو السعود | الحبيب المجنون | د. محمود دهموش |
| الفتيت المبعثر | محسن الرملي | فندق بدون نجوم | د. محمود دهموش |
| المينا الشرقية | محمد جبريل | إنسان (رواية فلسفية) | محمود القمحاوى |
| مد الموج | محمد جبريل | الحياة مفرد مؤنث | محمود قاسم |

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

# المؤلف

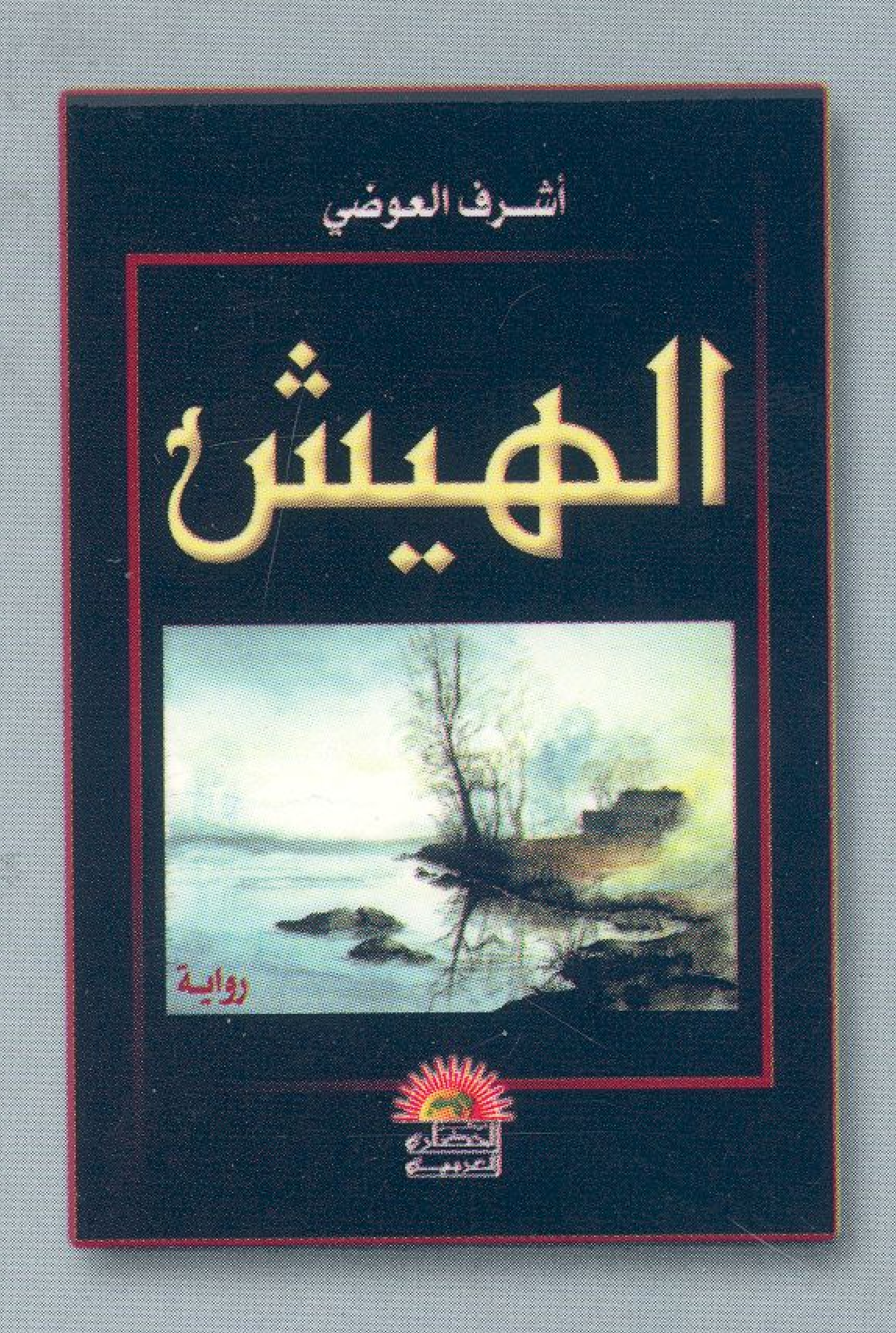
# أشرف العوضى

صدر له :

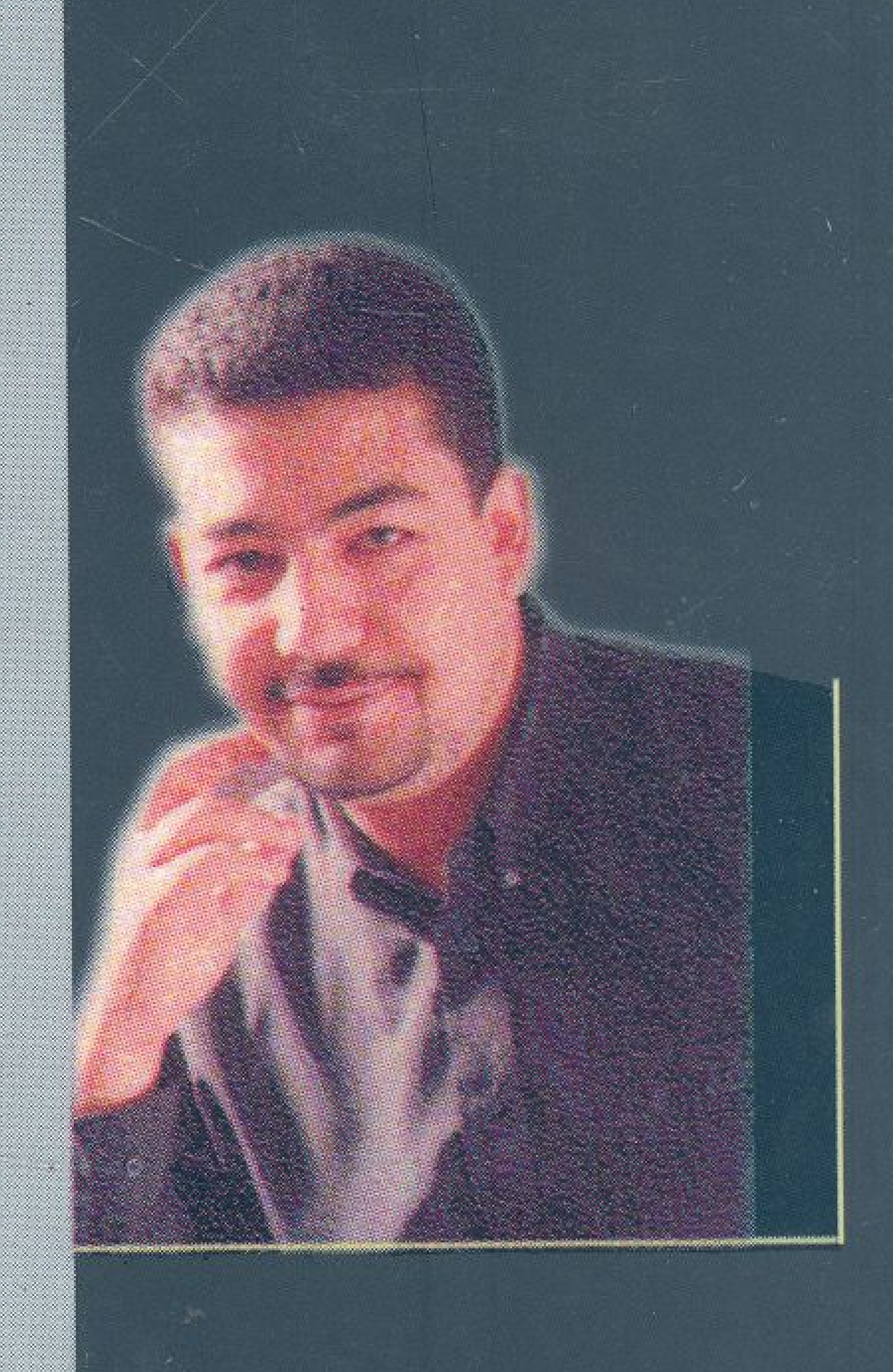
| | | |
|---|---|---|
| عفاريت شجرة السرو | قصص | ١٩٩٨ |
| حذاء السيد المنسي | قصص | ١٩٩٩ |
| هؤلاء لم يهبطوا من السماء | ج١ دراسة | ٢٠٠١ |
| الهيش | رواية | ٢٠٠٣ |

تحت الطبع :

| | |
|---|---|
| الغاوون | رواية |
| للبحر أيضا بكاء | قصص |
| عجائب الزمان في رحلة إيران | أدب رحلات |




كان الريف، ولايزال، المخزون الاستراتيجى للذاكرة المصرية، والعلامة الأساسية للحياة.. والموت فيها، ومصدر التحدي الحضاري المستمر لوجودها.



الهيش، النبات البري، الذي يجمع في تآلف مخيف بينن الخضرة والقسوة هو المعادل الموضوعي والتكثيف الرمزي لأسرار القرية المصرية. وفي هذه الرواية صراع بين البراءة والجريمة، وبين الجنس والحرية، وبين القدرية والتمرد.

في بناء فني يلائم بين التركيز والإشباع، تأخذ لغة الإعلام مداها التوصيلي، كما تأخذ الشع… الجمالي الخالص في توازن يعكس أهم ط… الذي وضعته الرواية تحت ضوء التشريح… مجاراة لمعتقدات أهله الذين يرون في ق… حقائق الوجود.

د. محمد ح…

